يوجد مالس أهل المصر

# السلطان الأشرف طومان باى

## والمقاومة المصرية للغزو العثمانى


تأليف

الدكتور

**السيد محمد الدقن**

أستاذ ورئيس قسم التاريخ والحضارة

بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر





٢٠٠٢ـ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

## مقـــــدمة

أحمد الله سبحانه وتعالى لأن وجه قلبي وجهة صالحة ارتضاها ، ويسر لى سبيل عمل أحببته ، ووفقنى إلى أن أبرزه فى هذه الصورة ، راجيا منه جل وعلا أن يجعله خالصا لوجهه الكريم،وأن يهب لى من لدنه توفيقا وسدادا إنه سميع مجيب .

وأصلى وأسلم على نبيه سيدنا محمد أكمل الناس خلقا ، وأغزرهم علما ، وأسماهم مثالا ، وأعلاهم همة وأمضاهم عزما وأنبلهم مقصدا وأبعدهم أثرا ، وعلى آله وصحبه الكرام .

وبعـــد

فهذا البحث سميته « السلطان الأشرف طومان باى والمقاومة المصرية للغزو العثمانى » ، ويرجع التفكير فى هذا البحث إلى الفترة التى قمت فيها بتدريس مادة تاريخ الدولة العثمانية ، ومادة تاريخ مصر العثمانية بكليتى اللغة العربية والتربية بجامعة الأزهر ،فلقد راعنى أن رأيت كل الباحثين المحدثين تقريبا يكتبون عن الغزو العثمانى لمصر ، وكأنه لايعدو أن يكون حدثا عاديا من الأحداث التى تنتهى بهزيمة جيش وانتصار آخر وانتقال إقليم من الأقاليم من تبعية حاكم إلى حاكم آخر فى سطور معدودة . وعلى أحسن الفروض فى صفحتين أوثلاث مما لايتفق وجلال هذا الحدث غير متعرضين بالذكر لأثر ذلك الحادث فى اشتعال روح المقاومة فى نفوس المصريين ، فالجميع يقرر أنه بعد موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وهزيمة جيش الغورى الذى قتل أثناء المعركة ، فتحت أبواب مصر أمام السلطان العثمانى سليم حيث دخلها بعد انتصاره على طومان باى فى واقعة الريدانية ٩٢٢هـ ١٥١٧م ثم قبض على طومان باى وشنقه على باب زويلة ، والبعض يقرر

أن طومان فر إلى الصعيد ليستعد للمقاومة ولكنه هزم وقبض عليه وشنق ، وكأن كل شهرة هذا السلطان فى التاريخ أنه هزم فى الريدانية وبعدها ثم شنق على باب زويلة فقط ، وأغفلوا بطولته وشجاعته وقيادته المقاومة المصرية الرسمية أولا ، ثم الشعبية بعد هزيمة الريدانية وسقوط العاصمة فى أيدى العثمانيين، وجهوده الخارقة فى الاستعدادات العسكرية والتحصينات الحربية ووضع الخطط وخوض المعارك العسكرية ضد العثمانيين وتكبيدهم الخسائر الفادحة الأمر الذى جعل السلطان سليم يفكر أكثر من مرة فى الإنسحاب من مصر وعقد معاهدة صلح مع طومان باى يعترف فيها الأخير بالسيادة الإسمية العثمانية . كل هذه الصفحات المشرقة من تاريخ الشعب المصرى بقيادة هذا السلطان الذى تولى السلطنة فى أحلك لحظة ، لمدة ثلاثة أشهر ونصف ( ١٤ رمضان — ٢٩ من المحرم ٩٢٢ هـ ) قضاها فى الاستعدادات لمقاومة الغزو العثمانى وخاض خلالها معركتين ضد العثمانيين فى غزة والريدانية ، ثم قاد المقاومة الشعبية لمدة سبعين يوما حتى واقعة وردان ( ١٠ من ربيع الأول ٩٢٣ هـ ) ظل خلالها يجمع الأنصار وينظم الصفوف ويرسم الخطط للمقاومة والدفاع ، وللإيقاع بالعثمانيين أينما كانوا ، وظل يناوئهم فى حماسة منقطعة النظير ، وفى شهامة بالغة حيث وقعت بين الفريقين وقائع مروعة فى بولاق والصليبة وأطفيح والجيزة ، وشهدت هذه الأماكن قصصا اسطورية وملاحم عسكرية لهؤلاء المماليك وهم يدافعون عن مصر ، كما شهدت ضروبا من الخيانة وخسة الضمير من بعض العربان ، فلله دره من سلطان زهد فى الملك ثم قبله مكرها ، وشهر سيفه للدفاع عن مصر ، وظل ذلك السيف مشرعا حتى اغمدته يد الغدر والخيانة . هذه الصفحات من تاريخ مصر دخلت سراديب التاريخ وتاهت بين منعطفاته حتى خيم عليها الظلام ، فكان التفكير فى هذا البحث لأجلو به عن تلك الحقائق من تاريخ مصر الحديث .

ويتكون هذا البحث من خمسة فصول :

الفصل الأول : وقد اعتبرته مدخلا إلى البحث ، وتناولت فيه العلاقات بين العثمانيين وبين الدولة المملوكية قبل الغزو العثمانى لمصر ، وكيف تطورت تلك العلاقة إلى حد امتشاق الحسام ، ثم تحدثت عن النزاع بين الغورى والسلطان سليم العثمانى ، وشرحت بإيجاز أسباب ذلك النزاع الذى حسم فى موقعة مرج دابق بالشام وانتهت بمقتل السلطان الغورى واستيلاء سليم على الشام .

الفصل الثانى : وعنوانه « الملك الأشرف أبو النصر طومان باى » ، وقد تناولت فى ذلك الفصل المناصب التى تولاها طومان باى قبل أن يلى أمر السلطنة فى مصر ، ونشاطه وأعماله التى قام بها فى أثناء شغله لتلك المناصب فى عهد السلطان الغورى ، من تصديه لفتن المماليك ، وإخماده لثورات العربان ، وإشرافه على جمع الضرائب ، ومشاركته للغورى فى الإشراف على بناء الأسطول المزمع إرساله لمقاومة البرتغاليين فى المياه الشرقية ، هذا فضلا عن إشرافه على تعمير الجسور المنهارة نتيجة الفيضانات العالية ، كما تحدثت عن حسن سياسته أثناء مزاولته مهام مناصبه ، ثم عرجت على حياته الأسرية فألقيت عليها بعض الضوء ، ثم تحدثت عن سياسة طومان باى نائب الغيبة فى أثناء سفر الغورى إلى حلب لملاقاة العثمانيين ، وكيف أنه أشاع العدل والطمأنينة فى ربوع البلاد ، وفى نهاية الفصل تحدثت عن الموقف فى كل من مصر والشام عقب هزيمة مرج دابق ، وصدى هذه الهزيمة فى النفوس ، وإجماع الرأى على تولية طومان باى عرش السلطنة فى مصر رغم إبائه وتمنعه .

الفصل الثالث : وعنوانه « المقاومة الرسمية للغزو العثمانى لمصر » ، وقد تحدثت فى هذا الفصل عن استعدادات السلطان طومان باى لمواجهة

الخطر العثمانى ، وإرساله حمله إلى غزة لملاقاة سليم قبل زحفه على مصر ، ثم تحدثت عن واقعة الريدانية ، موضحا مقدمات هــذه الواقعة ، والاستعدادات العسكرية الضخمة التى حشدها طومان باى ، والتحصينات التى أقامها استعدادا للقاء العثمانيين للدفاع عن العاصمة ، والزحف العثمانى إلى العاصمة ، والمعركة المهولة التى شهدتها صحراء الريدانية وبسالة طومان باى فى أثناء هذه المعركة ، ثم ذكرت وصف ابن إياس الرائع لهذه الوقعة ثم ختمت الفصل بتحليل وثيقة هامة عن ضخامة الاستعدادات الذى بذلها طومان باى لمقاومة الغزو العثمانى لمصر ، وهى عبارة عن خطاب من السلطان سليم إلى نائبه على الشام ذكره ابن الحمصى فى مخطوطته ، يعترف فيه السلطان سليم ببسالة هذه المقاومة فى غزة والريدانية رغم محاولته إخفاء هذه الحقيقة ، والفضل ماشهدت به الأعداء .

الفصل الرابع : وعنوانه المقاومة غير الرسمية (الشعبية) . وقد أوضحت فى هذا الفصل ، كيف أن المصريين لم يستسلموا للعثمانيين بعد هزيمة الريدانية ولم يتركوا بلادهم لقمة سائغة لهم بل انفجرت المقاومة فى جميع أنحاء القاهرة بقيادة طومان باى ، وكيف أن جميع عناصر الشعب قد اشتركت فى هذه المقاومة حتى النساء فكانت واقعة الصليبة ، ثم تحدثت عن انضمام الخائن جان بردى الغزالى إلى العثمانيين صراحة بعد تواطئه السابق معهم فى مرج دابق وغزة والريدانية ، كما تناولت واقعة أطفيح التى أثبتت فيها المقاومة ذاتها ، مما ترتب عليها حدوث مساع للصلح بين الطرفين باءت بالفشل نتيجة تهور المماليك ، ثم تحدثت عن مقدمات واقعة وردان ، من محاولة سليم العبور إلى الجيزة للقضاء على المقاومة وفشل هذه المحاولة ، وعرضه الصلح من جديد على المماليك وفشل تلك المساعى ، وعبور سليم إلى الشاطىء الغربى للنيل ، وموقعة الجيزة ، وتدخل عرب غزالة إلى جانب العثمانيين فى موقعة وردان التى انتهت بها المقاومة ، كما أوضحت

دور الخيانة فى القبض على طومان باى وإخفاق المقاومة ثم شنق طومان باى على باب زويلة ، وختمت الفصل بالحديث عن مصر كولاية عثمانية .

الفصل الخامس : وعنوانه ( عوامل إخفاق المقاومة المصرية للغزو العثمانى ) ، وقد قسمت هذه العوامل إلى قسمين : منها ما يتصل بالجانب العثمانى مثل : كون الدولة العثمانية دولة إسلامية ناهضة ، والنظام العسكرى العثمانى ، والأسلحة الحديثة التى استخدمها العثمانيون ، والروح المعنوية العالية للجيش العثمانى نتيجة انتصاراته السابقة على الصفويين والغورى ، والتجسس والحرب النفسية التى استخدمها سليم فى أثناء غزوة لمصر .

أما العوامل التى اتصلت بالجانب المملوكى ( المصرى ) فمنها : التدهور الاقتصادى الذى أصاب الدولة المملوكية فى خريف عمرها نتيجة حروبها الكثيرة ونفقاتها ، وغيرها من العوامل المحلية ، فضلا عن عامل هام وهو تحول التجارة العالمية عن طرقها الرئيسية عبر أراضى الدولة المملوكية إلى طريق رأس الرجاء الصالح الذى اكتشفه البرتغاليون ، وأثر هذا العامل الاقتصادى على القوة العسكرية للدولة المملوكية ، ومنها انقسام جيش المماليك إلى شيع وأحزاب وتطاحنهم فيما بينهم بغية تحقيق منافع شخصية مما نتج عنه ضعف القوة العسكرية للجيش المملوكى ، ومنها سلسلة الخيانات التى وقعت منذ معركة مرج دابق واستمرت فى أثناء مراحل المقاومة فى غزة والريدانية وفى الجيزة ، وكان أبرزها فى المرحلة الأخيرة للمقاومة خيانة عرب غزالة للسلطان طومان باى وانضمامهم إلى صفوف العثمانيين ، وخيانة حسن بن مرعى للسلطان وتسليمه لعدوه الذى شنقه ، ومنها اعتداد المماليك بشجاعتهم وفروسيتهم وعدم أخذهم بالتطور الحديث فى الأسلحة مما جعل معاركهم ضد العثمانيين غير متكافئة من ناحية التسليح .

هذا وقد استقيت مادة العلمية فى هذا البحث من مصادرها الأصلية

التى عاش مؤلفوها أحداث ذلك العصر ورأوا بأعينهم ماجرى فيه من وقائع تأثروا بها فدونوها بلا زيف ولا مبالغة مثل : ابن إياس فى كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وابن زنبل فى مؤلفه « واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى » ، وابن الحمصى فى مخطوطته القيمة « حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الأعيان وأبناؤه » هذا فضلا عن بعض المخطوطات الأخرى القريبة العهد بهذه الأحداث مثل : « تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب » لابن الوكيل ، و « الدر المنضد فى مدح الوزير محمد » لزين الدين التحريرى ، و « نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الملوك والسلاطين » المقدسى ، بالإضافة إلى العديد من المصادر الأخرى المطبوعة مثل : « النجوم الزاهرة ... » لأبى المحاسن ، و « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى ، و « لطائف أخبار الأول ... » للاسحاقى ، و « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » للغزى ، و « أخبار الدول وآثار الأول » للقرمانى ، و « تحفة الناظرين ... » للشيخ الشرقاوى ، و « الخطط التوفيقية » لعلى مبارك ، و « التحفة الحليمية ... » لإبراهيم بك حليم ، و « تاريخ الدولة العلية ... » لمحمد فريد ، وغير ذلك من المراجع الحديثة المترجمة مثل « تاريخ العرب العام » لسيديو و « تاريخ دولة المماليك فى مصر » للسير وليم موير ، وغير المترجمة مثل « أوربا فى مطلع العصور الحديثة » للدكتور الشناوى ، و « البلاد العربية ... » لساطع الحصرى ، ودائرة المعارف الإسلامية ، وغير ذلك مما أثبته فى ثبت المصادر والمراجع فى نهاية البحث .

وأرجو بذلك أن أكون قد وفقت فى إجلاء الغموض عن تلك الصفحات المشرقة من نضال مصرنا العزيزة ضد الغزو الأجنبى ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، فهو — جل شأنه — من وراء القصد ، وهو يهدى السبيل .

دكتور
السيد محمد الدقن

# الفصل الأول

## مدخل إلى البحث

### العلاقات بين العثمانيين والدولة المملوكية قبل الغزو العثماني لمصر :

كانت العلاقات بين الدولة العثمانية الفتية وبين دولة المماليك البرجية تتأرجح بين الود وحسن الجوار والتكريم المتبادل بينهما الذى وصل إلى حد تبادل الهدايا والتهانى بالانتصارات العسكرية حينا ، وبين النفور والشقاق والتنازع الذى وصل إلى حد الصدام العسكرى على الحدود بين الدولتين حيناً آخر ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر : الوفود التى أرسلها السلطان محمد الفاتح العثمانى إلى سلطان مصر الأشرف إينال العلائى سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م للتبشير بفتح القسطنطينية ، فأمر سلطان مصر بإقامة الزينات فى القاهرة ابتهاجا بتلك المناسبة ، وأرسل وفود التهنئة بهذا الفتح العظيم ، كما أرسل إلى السلطان الفاتح وفداً آخر فى سنة ٨٦٠ هـ/١٤٥٦ م يحمل الهدايا القيمة ، وأيضاً الهدايا التى بعث بها السلطان الفاتح إلى سلطان مصر قايتباى فى سنة ٨٧٦ هـ/١٤٧٢ م ، والمعونات العسكرية التى أرسلها السلطان العثمانى بايزيد الثانى والسلطان سليم إلى السلطان الغورى إبان حروب الأخير ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م[1]،

---

(١) انظر ابن الوكيل ( يوسف بن محمد الملوى ) ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ ومصورة بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية تحت رقم ٤٧٧ ، ورقة ٥٧ . وابن إياس ( محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ) - بدائع الزهور فى وقائع الدهور ثلاثة أجزاء ط ، بولاق ١٣١١ هـ ج ٣

الأمر الذى يدل على العلاقات الودية التى تتسم بالطابع الاسلامى بين سلاطين الدولة العثمانية ، وسلاطين المماليك بمصر ، بيد أن تلك الروح الودية فى العلاقات لم تأخذ طابع الاستمرارية ، بل كانت تتخللها فترات من سيادة الروح العدائية بين الدولتين . ومن ذلك أن السلطان بايزيد الأول — أثناء حروبه ضد المغول — اضطرته طبيعة المعارك العسكرية التى خاضها ضدهم أن يدخل ملطية ويصل بجيشه إلى مشارف بلاد الأبلستين سنة ٨٠١ هـ / ١٠٩٨ م[١] ، الأمر الذى نجم عنه قلق سلطان مصر المملوكى فرج بن برقوق لأن هذه البلاد كلها خاضعة لسلطانه ، وكذلك مناصرة سلطان مصر قايتباى للأمير جم العثمانى فى صراعه ضد أخيه السلطان بايزيد الثانى ، فقد سمح قايتباى للأمير جم باللجوء إلى مصر بعد هزيمة الأخير أمام أخيه فى موقعة أركى سنة ٨٨٦ هـ/١٤٨١م ، ثم سمح له فى العام التالى بالخروج لمحاربة أخيه بايزيد الثانى ، فهزم الأمير جم وفر لاجئاً إلى بلاد الفرنجة فأرسل إليه بايزيد من احتال على اغتياله[٢] ، ولم ينس بايزيد

---

= ص ص ٤٤ ، ٥٤ ، ١٢٢ ، ١٣٣ . وهناك طبعة أخرى بالقاهرة سنة ١٩٦٠ بجلد واحد استكمل فيها النقص الموجود بالطبعة السابقة رجعت إليها عند الحاجة ، انظر ص ص ٨٠٧ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨٦٢ من هذه الطبعة .

وابن العماد ( عبد الحى بن العماد الحنبلى ) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ( ٨ أجزاء ) طبع القاهرة ١٣٥١ هـ جـ ٧ ص ١١٤ .

جمال الدين أبو المحاسن بن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ ٦ ، تحقيق د جمال الدين الشيال ، فهيم محمد شلتوت ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٢ ، ص ص ٧٠/٧١ .

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ١ ص ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

(٢) ابن الوكيل . مصدر مخطوط سبق ذكره الورقتان ٥٩ ، ٦٠ ، وانظر السير وليم موير ، تاريخ دولة المماليك فى مصر . ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ط ١ القاهرة ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م ص ١٦٠ .

الثانى هذا الموقف العدائى من سلطان مصر قايتباى ، فانتهز فرصة خروج على دولات — من أمراء الحدود الشمالية فى الشام — على السلطان قايتباى وحصاره لبلدة ملطية سنة ٨٨٨ هـ ، فأمده بايزيد بالسلاح والجند ، الأمر الذى حدا بسلطان مصر أن يبادر بإرسال تعزيزات كبيرة تقمع على دولات[١] .

وقد استمر التصاعد فى العداء بين الطرفين إلى درجة التطرف ، فصادر سلطان مصر قايتباى هدية كانت مرسلة من بعض ملوك الهند إلى السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، كما أرسل قايتباى فى سنة ٨٩٠ هـ/١٤٨٥م كتابا إلى بايزيد الثانى ومعه تقليد من الخليفة العباسى بالقاهرة بتنصيبه ( بايزيد ) قائمقام السلطان على بلاد الروم « وما سيفتحه الله على يديه من البلاد الكفرية »[٢] ، وهذا يعنى الاعلان صراحة عن تبعية السلطان العثمانى للسلطان قايتباى فكان رد السلطان العثمانى على هـــذا التحدى والاستفزاز أن قام بالاستيلاء على القلاع التى تقع على الحدود بين الدولتين ، والتى كانت مثار نزاع بينهما فى ذات السنة[٣] فما كان من مصر إلا أن أرسلت فى العام التالى ( ٨٩١ هـ/١٤٨٦م ) جيشاً كبيراً استطاع أن ينزل بالعثمانيين هزيمة ساحقة عند قيسارية ، وأن يثخنهم قتلا وأسرا حتى بلغ عدد القتلى — على حد تعبير ابن إياس — نحو أربعين ألفا كما أسر عدد كبير من العثمانيين منهم قادة وكبار العسكريين ، ولم تكتف مصر بذلك فأرسلت فى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م جيشاً آخر استطاع أن يستعيد بقية قلاع الحدود إلى حظيرة الدولة المملوكية[٤] .

---

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٢١٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٢٧

(٣) ابن الوكيل ـ مصدر مخطوط سبق ذكره ـ ورقة ٦٠ .

(٤) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٢٣٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

وفى عهد السلطان قانصوه الغورى وصل العداء بين مصر والدولة العثمانية إلى درجة شديدة تنذر بقرب الصدام الحاسم بين الدولتين ، على الرغم من مظاهر الود المشوب بالحذر ، التى كانت تطفو على السطح أحيانا والتى تمثلت فى إيفاد الغورى وفداً لتهنئة سليم الأول بمناسبة إعتلائه عرش السلطنة العثمانية ، وفى الهدايا التى بعث بها الأخير إلى سلطان مصر قانصوه الغورى[١]، غير أن هذه المجاملات الدبلوسية لم تقضى على أسباب النزاع بين الدولتين .

النزاع بين الغورى والسلطان سليم ( موقعة مرج دابق ١٥١٦ م ) :

لقد توفرت أسباب النزاع بين هذين السلطانين ، وأول هذه الأسباب هو الخلاف على الحدود بين الدولتين ، فقد كانت هناك بعض الإمارات والقبائل تتأرجح فى ولائها بين الدولتين ، الأمر الذى نتج عنه اضطراب فى العلاقات بين الغورى وسليم ، ونزاع مستمر بينهما ، فقرر السلطان سليم أن يحسم هذه المنازعات بالإستيلاء على مناطق الحدود[٢]، وثانى هذه الأسباب هو إيواء الغورى لبعض الأمراء العثمانيين الفارين من وجه السلطان سليم ، واتخاذهم أداة لإثارة المتاعب والقلاقل فى الدولة العثمانية[٣]، وهناك سبب ثالث أهم من سابقيه تمثل فى تلك السياسة الحمقاء التى اتبعها

---

(١) المصدر السابق ( مجلد واحد ص ص ٨١٠ ، ٨١٠ ، ٩٢٤ .

(٢) القرمانى ( أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى ) أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ طبعة بغداد ـ طبع حجر ١٢٨٢ هـ ـ ص ص ٣١٤ ، ٣١٥ .
ابن الوكيل ـ مصدر مخطوط سبق ذكره ورقة ٦١ .

(٣) ابن إياس ـ المصدر السابق ص ص ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ( مجلد واحد ) ، ابن زنبل ( الشيخ أحمد الرمال ) ـ آخرة المماليك واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ١٩٦٢ ص ١٩ .

الغورى بأن الحرب التى قامت بين السلطان سليم وبين الشاه اسماعيل الصفوى ، ذلك أن الغورى لم يقف على الحياد إزاء الطرفين المتقاتلين ، بل اتخذ موقفا غير ودى من العثمانيين دون أن يقيد ذلك الشاه الصفوى على الاطلاق ، وقد كان بوسعه — لو أراد أن يتخذ موقف العداء الصريح من العثمانيين — أن يقدم للصفويين مساعدة فعالة أثناء توغل الجيش العثمانى فى الأراضى الفارسية وذلك بالزحف فى أثره ، وإيقاع الجيش العثمانى بين شقى الرحى ؛ الجيش الصفوى من الأمام والجيش المملوكى من الخلف، الأمر الذى يعرض الجيش العثمانى لخطر الإبادة كما كان فى استطاعة الجيش المملوكى أن يقطع على الجيش العثمانى خط الرجعة إلى بلاده ، وأكثر من هذا وذاك أنه كان فى استطاعة الجيش المملوكى أن يزحف على الأراضى العثمانية فى غيبة الجيش العثمانى عنها ، فيعجز هذا الجيش عن الدفاع عن بلاده ، وعن الاغارة على فارس ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، واكتفى الغورى بالتأييد الشكلى الذى بذله للصفويين ، وذلك بمنعه الهدايا التى كانت مرسلة من الهند إلى استانبول ومنعه وصول الإمدادات اللازمة للجيش العثمانى أثناء توغله فى الأراضى الفارسية ، الأمر الذى أعاق تقدم الجيش العثمانى ، وجعل سليم يدرك خطورة الدولة المملوكية وينسحب بجيشه من فارس بعد استيلائه على تبريز عاصمة الصفويين ، ويحزم أمره على الإنتقام[1] ، وقد كان ذلك ؛ فى طريق عودته إلى بلاده — بعد

---

(١) المقدسى ( مرعى بن يوسف ) - نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الملوك والسلاطين ، مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٣٢٦ تاريخ ص ١٢٣ .

وانظر الاسحاقى (محمد عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن على) لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣١٥ هـ ص ١٢٨ ، ابن العماد الحنبلى . المصدر السابق ج ٨ ، ص ١٤٤ .

انتصاره على الصفويين فى موقعة تشالديران ( ٢٢ أغسطس ١٥١٤ م ) ودخوله عاصمتهم تبريز — استولى سليم على المناطق التى كانت تفصل بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية شرق الشام وغربى الفرات فأصبحت الدولة العثمانية بحدودها الجديدة فى مواجهة دولة المماليك فى تلك المنطقة وبات الخطر وشيكا[١]، ولم تلبث أن اشتعلت الحرب بين الدولتين — بعد أن فشلت محاولات الصلح بينهما — واستطاع العثمانيون إنزال الهزيمة الساحقة بالجيش المملوكى فى معركة مرج دابق شمالى حلب ( ٢٥ رجب ٩٢٢ هـ/٢٤ أغسطس ١٥١٦ م ) وسقط السلطان الغورى من فوق حصانه من هول الصدمة وضاعت جثته بين آلاف الجثث[٢]، وقد روى أن بعض اتباعه — عندما وجدوه قد سقط على الأرض — قطعوا رأسه وألقوها فى جب حتى لايجده العدو فيقتلونه ويأخذون رأسه يطوفون بها جميع البلاد العثمانية[٣].

وعندما وصلت أنباء الهزيمة ومقتل السلطان الغورى إلى مصر اجتمع أمراء المماليك واختاروا الأمير طومان باى الدوادار — الذى كان الغورى قد ولاه منصب نائب الغيبة — سلطانا على مصر باسم الملك الاشرف أبى النصر طومان باى.

---

* الشيخ عبدالله الشرقاوى ـ تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين وهو كتاب مطبوع على هامش كتاب الإسحاقى السالف الذكر ص ١٣٢.

(١) ابن الوكيل ـ مصدر مخطوط سبق ذكره ورقة ٦١.

(٢) ابن إياس ـ المصدر السابق حـ٣، ص ص ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٥٦، ٥٨.

(٣) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ٣١.

# الفصل الثانى

## الملك الأشرف أبو النصر طومان باى

### المناصب التى شغلها طومان باى قبل أن يلى أمر السلطنة فى مصر :

هو آخر سلاطين دولة المماليك البرجية ، وكان أصله جركسى الأصل، اشتراه السلطان قانصوه الغورى ، وكان يلوذ له بقرابة حتى يقال أنه ابن أخيه[1] ، قدمه إلى السلطان الاشرف قايتباى ، فصار من جملة مماليك قايتباى الكتابية ، واستمر على ذلك حتى اعتلى الملك الناصر محمد بن قايتباى عرش مصر فأعتقه وخصص له خيلا وقماشاً وغلمانا ، وبقى جمدارا ثم خاصكيا[2] واستمر على ذلك حتى تولى قريبه قانصوه الغورى السلطنة فى مصر فى (شوال سنة ٩٠٦ هـ/ابريل ١٥٠١ م)[3] فأخذ يترقى بسرعة فى المناصب ، فجعله أمير عشرة[4] ، واستمر على ذلك إلى سنة ٩١٠ هـ حين توفى المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى ، فأنعم عليه السلطان بمنصب أمير طبلخانه ، وجعله شاد الشرابخاناة[5] خلفا لولده الذى توفى ، واستمر

---

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٨ ، ص ٧٥١ ( مجلد واحد ) .

(٢) الجمدار : الخادم الذى يعاون السلطان فى ارتداء ملابسه ـ والخاصكى : أحد خاصة السلطان من خدم قصره وحراسه (على مبارك باشا ـ الخطط التوفيقية. بولاق ١٣٠٦ هـ جـ ١٢ ، ص ٢٧ .

(٣) ابن إياس المصدر السابق ص ٦٨٥ ( مجلد واحد ) .

(٤) أى يرأس عشر فرسان .

(٥) أمير طبلخانة : أى يرأس أربعون فارسا ـ شاد الشرابخاناة : الذى

يشغل هذه الوظيفة حتى ذى الحجة سنة ٩١١ هـ فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف[١] مضافا لما فى يده من شـادية الشرابخاناة ، وعندما توفى الأمير أزدمر بن على باى الدوادار الكبير فى جمادى الأولى سنة ٩١٣ هـ أثناء وجوده بنابلس لقمع عصيان عربان بنى لام أنعم السلطان الغورى على الأمير طومان باى بمنصب داودار كبير[٢] ، كما خلع عليه خلعة الأنظار فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وبدأ نجم طومان باى فى الصعود ، فما أن حل يوم الاثنين ١١ من شعبان سنة ٩١٤ هـ حتى أنعم السلطان الغورى على الأمير طومان باى بالاستادارية العالية[٣] ، بعد أن عزل عنها شرف الدين النابلسى الاستادار فصار طومان باى أمير دوادار كبير واستادار العالية وكاشف الكشاف[٤] .

---

= ينظر فى المشارب السلطانية وما فيها من فاكهة وحلوى وأشربة ( د. محمود رزق سليم ) عصر سلاطين المماليك ( ٨ مجلدات ) المجلد الأول ، ط ٢ مكتبة الآداب بالجاميز - القاهرة ١٩٦٢ ص ص ٨٥ ، ٨٧ ) .

(١) مقدم ألف - أى يتقدم ألف أمير ممن دونه فى المرتبة ويبدو أنه تقدم ادبى ( المرجع السابق ص ٥٨ ) .

(٢) الدوادار - الذى يبلغ رسائل السلطان ويقدم إليه المظالم والأخبار ونحوها ، وينظر فى المقابلات السلطانية ، ويقدم البريد ويطلب توقيع السلطان على المناشير والرسائل ونحوها ( المرجع السابق المجلد الأول ص ٨٧ ) .

(٣) الاستادار : هو الذى يوكل إليه النظر فى بيوت السلطان جميعا والإشراف على مطابخه ومشاربه وحاشيته وخدمه ، وينفق على بيوته ومن فيها ، ويدبر له مايحتاج إليه ( د . محمود رزق سليم - المرجع السابق - المجلد الأول ص ٨٧ ) .

(٤) ابن إياس المصدر السابق ( مجلد واحد ) ص ص ٦٩٨ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٤١ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٧٣ .

وفى عام ٩١٧ هـ خلع السلطان على المقر السيفى طومان باى الدوادار الكبير وعينه أمير ركب المحمل للحج ، وصحبه للحج فى هذا العام جماعة كثيرة من الأعيان ، منهم أحد الأمراء مقدمى الألوف ، وجماعة من الرؤساء بالديار المصرية ، وبعض مشايخ العربان وغير ذلك جماعة من مشاهير السيدات وعلى رأسهن زوجة طومان باى ابنة الأمير اقبردى الدوادار ووالدتها ، وزوجة الأتابكى[1] سودون العجمى ، وعند عودة المحمل إلى القاهرة فى المحرم سنة ٩١٨ هـ خلع السلطان على الأمير طومان باى ، كما خلع على من حج معه من الأعيان ، ونزل الأمير طومان باى من القلعة فى موكب حافل وأمامه الأمراء المقدمون قاطبة ، وكان له يوم مشهود ، ويعلق ابن اياس على ذلك بقوله : « وقد رجع من هذه السفرة والناس عنه راضية ، وأشيع عنه أخبار حسنة بما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والإحسان وفعل الخير وحمل المنقطعين ، والصدقات بطول الطريق على الفقراء والمساكين فشكر له الناس ذلك »[2].

وفى يوم الخميس ٩ من رمضان سنة ٩١٨ هـ خلع السلطان الغورى على المقر السيفى طومان باى أمير دوادار وقرره متحدثا على ديوان الوزارة والاستادارية وسائر الدواوين قاطبة ، ويصف ابن إياس مقدار العظمة التى بلغها طومان باى حينذاك بقوله : « ... أنه بقى نظام المملكة ، فتضاعفت عظمته جداً ، واجتمع فيه عدة وظائف سنية ولا سيما لكونه قرابة السلطان ، فلما نزل من القلعة كان له يوم مشهود ،

---

(١) الأتابكية : هى إمارة الجند ـ ويقال لحاملها « أتابكى » وهى تلى رتبة نيابة السلطنة فى الأهمية ( د . محمود رزق سليم ـ المرجع السابق ـ المجلد الاول ـ ص ٨٦ ) .

(٢) ابن إياس ـ المصدر السابق . (مجلد واحد) ص ص ٨٢٢ ، ٨٤٠ ، ٨٤٤ .

ونزل أصحبته سائر الأمراء وأرباب الدولة . . ويتقدمهما الطبول والزمور»[1].

وفى ذى القعدة سنة ٩٢٠ هـ عندما أراد الغورى السفر إلى ثغر الإسكندرية لتفقد أبراجها، وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل (المدافع) أصدر مرسوما بأن يكون الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة[2] عنه إلى أن يحضر من السفر، فصعد طومان باى إلى القلعة وأقام بها إلى أن يعود السلطان، وفى أثناء وجود الغورى بالاسكندرية حرص طومان باى على إشاعة الأمن والاطمئنان فى القاهرة، وكبح جماح المماليك، وتعديهم على الناس فى الأسواق، فأمر «بأن ينادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلا من المغرب، وأن لا مملوكا ولا غلاما ولا عبدا يخرج من بعد العشاء ومعه سلاح، وأن لا مملوكا يغطى وجهه إذا خرج إلى السوق، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة فضج الناس له بالدعاء»[3].

وفى ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ عندما خرج السلطان الغورى فى جيشه إلى الشام لملاقاة السلطان سليم العثمانى خلع على الأمير طومان باى الدوادار

---

(١) المصدر السابق (مجلد واحد) ص ٨٦٢.

(٢) للسلطنة نائبان: النائب الكافل أو نائب الحضرة، وكان ينوب عن السلطان فى أثناء وجوده فى مصر، ونائب الغيبة - وهو أقل درجة - وينوب عن السلطان فى أثناء غيبته فقط عندما يغادر البلاد فى حرب أو حج أو غير ذلك (د. عبد العزيز الشناوى - أوربا فى مطلع العصور الحديثة ج ١ دار المعارف القاهرة ١٩٦٩: هامش (١) ص ٥٨١)، د. محمد رزق سليم - المرجع السابق المجلد الأول ص ٨٦.

(٣) ابن إياس المصدر السابق (مجلد واحد) ص ص ٩٤٣، ٩٤٤، ٩٤٩.

كاملية بسمور حافله وقرره نائب الغيبة فى القاهرة إلى أن يحضر من السفر، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وأطاعة العسكر الذين تخلفوا بمصر قاطبة ، وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية ، وكاشف الكشاف ، ونائب الغيبة »(١)، وقد ظل كذلك إلى أن اختير سلطانا على مصر عقب مصرع الغورى فى مرج دابق . هذا عن المناصب الذى تدرج فيها طومان باى منذ أن كان مملوكا للسلطان الاشرف قايتباى إلى أن اعتلى عرش السلطنة فى مصر .

نشاطه وأعماله التى قام بها إبان سلطنة الغورى :

[ ١ ] إخماد فتن المماليك :

كان طومان باى بحكم قرابته وإخلاصه للسلطان الغورى محببا إليه ، ومن ثم فقد جمع إليه الغورى المناصب القيادية فى الدولة - كما سبق أن رأينا - وقدم قام طومان باى بعبء هذه المناصب خير قيام ، فتصدى للعواصف التى كانت تهدد أستاذه وولى نعمته الغورى بسبب تمرد المماليك عليه ، أو قيام العربان بالفتن والثورات ضده . ففى شوال سنة ٩١٠ هـ ثار المماليك الجلبان ووثبوا على السلطان بالقلعة، ونزلوا من الطباق وأظهروا العصيان ، وحدث منهم فى ذلك اليوم غاية الفساد ، وقصدوا أن يهجموا على السلطان وهو جالس فى الدهشة ..... ومنعوا الأمراء من الطلوع إلى القلعة ، فلم يخرج السلطان فى ذلك اليوم ، ولا قعد على السماط وقصد أن ينزل من القلعة ويختفى من قهره من المماليك فلم يمكنه الأمير طومان باى الدوادار من ذلك ... ثم سكن الحال »(٢) .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٣٠ ، ٦٩ .

(٢) المصدر السابق ( جلد واحد ) ص ص ٧٦٣ - ٧٦٤

وفى المحرم سنة ٩١٦ هـ جماعة من المماليك الجلبان بسبب النفقة ، وكانت ثورتهم هذه المرة عنيفة قضت على الأخضر واليابس ، فقد أجبروا بعض أمراء المماليك ومنهم الأمير طومان باى الدوادار على الصعود إلى السلطان ليكلموه فى أمر النفقة ، وعندما رجعوا إليهم بامتناع السلطان عن النفقة قامت قيامتهم ولم يكن جماحهم سوى الأمير طومان باى ، ويصف ابن إياس هذه الفتنة بقوله : « فلما ردوا الجواب على المماليك بأن السلطان امتنع من إعطاء النفقة ، فاتسعت الفتنة ، نزل المماليك من الطباق أفواجا أفواجا وهم بزرديط وكباشيات ومطارق فى أيديهم فتوجهوا إلى سوق جامع ابن طولون فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين الصليبة[1] ، ثم توجهوا إلى سوق تحت الربع فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين البسطيين وغير ذلك من الأسواق ، حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها فى ذلك اليوم ، وأغلقت الأمراء أبوابها خوفا من المماليك ، فاستمروا ذلك اليوم على هذا الحال والأمر مضطرب ، وقد نهب للناس أشياء كثيرة بنحو عشرين ألف دينار ، والتف على المماليك الغفير من الغلمان والعبيد . . . وبات الناس تلك الليلة على وجل ، ولم يجدوا من يرد المماليك عن ذلك ، وكانت ليلة مهولة ، وكل مفعول فيها جائز . . . ثم أصبحوا يوم الأحد على ما هم فيه من النهب والخطف وتزايد الأمر جداً ، ومنعوا الأمراء من الركوب والمرور فى الطرقات وغلقت الأسواق ... ثم إن الأمير طومان باى الدوادار صار يركب فى عدة مماليك ويطوف الأسواق والحارات ويكبس على المماليك فى اسطبلاتهم فمن وجد عنده شيء من النهب أخذه ورده إلى أصحابه ، وصار الناس يغمزون على كل من عنده من النهب فردوا منه لأصحابه بعض الشيء . . . »[2].

---

(١) الصليبه : مكان معروف بالقاهرة بالقرب من مسجد أحمد بن طولون .

(٢) ابن إياس - المصدر السابق -(مجلد واحد) ص ص ٧٩٥ ، ٧٩٦ .

ويروى لنا ابن إياس فى تاريخه فتنهم المتعددة فى جمادى الأولى سنة ٩١٧ هـ، وفى رجب من ذات السنة، وفى ذى الحجة سنة ٩٢٠ هـ، وفى صفر سنة ٩٢١ هـ بسبب النفقة وتصدى الأمير طومان باى الدوادار لإخماد تلك الفتن إما بتهدئة المماليك بالعدول عنها أو باقناع السلطان بصرف النفقة لهم وترضيتهم[١].

[ب] إخماد فتن العربان :

ولم يقتصر نشاط الأمير طومان باى على القضاء على فتن المماليك وعصيانهم وتمردهم وإنما امتد أيضاً إلى قيامه بإخماد فتن قبائل العربان فى جنوب مصر وشمالها، بل وفى الشام أيضاً: ففى يوم ٢٧ من المحرم سنة ٩١٦هـ خرج الأمير طومان باى إلى الصعيد لإخماد الفتن التى وقعت بين قبيلة بنى عدى وبنى كلب والتى كادت أن يحدث بسببها الأضرار البالغة بتلك الجهات، وقد استمر طومان باى فى تلك المهمة حوالى خمسة أشهر عاد بعدها إلى القاهرة فى جمادى الآخرة حيث صعد إلى القلعة لتقديم تقريرعنها للسلطان الغورى الذى خلع عليه ونزل فى موكب حافل[٢]، كما خرج إلى الغربية فى ١٦ صفر سنة ٩١٧ هـ لمعاقبة قتلة شيخ العرب عيسى بن يوسف المعروف بابن جميل — وكان من أعيان مشايخ الغربية وكان فى سعة من المال — الذين قتلوه شرقتله كما قتلوا ولده وجماعة من حاشيته ونهبوا أمواله وأغنامه وأشاعوا الفساد فى المنطقة، فطاردهم طومان باى وشتت شملهم وإن كان لم يظفر منهم بطائل، فلما رجع وصعد إلى القلعة كافأة السلطان بخلعة حافله ونزل إلى داره فى موكب عظيم[٣].

---

(١) انظر المصدر السابق (مجلد واحد) ص ص ٨٣١، ٨٣٥، ٨٣٦، ٩٥١، ٩٥٢، ٩٥٣، ٩٦٠، ٩٦١، ٩٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ص ٧٦٧، ٨٠٤ مجلد واحد.

(٣) المصدر السابق ص ص ٨١٩، ٨٢٠ مجلد واحد.

وفى شهر المحرم سنة ٩١٨ هـ جاءت الأخبار إلى العاصمة بأن عربان البحيرة قد أفسدوا وقد تحالفت سبع طوائف منهم على العصيان ، كما أن عرب غزالة بالبحيرة —وهم شديدى البأس— قد انضموا اليهم وأظهروا العصيان وزحفوا على البلاد وأفسدوا الزروع ونهبوا المحاصيل وطردوا كاشف المنوفية وغيره من البلاد ، وقد ازداد خطرهم على الدولة ، فعين لهم السلطان الغورى تجريده ضمت بين صفوفها بعض الأمراء المقدمين وكاشف الغربية وعلى رأسهم الأمير طومان باى الدوادار ، وخرجت التجريدة —وقد رجت لها القاهرة من ضخامتها— قاصدة البحيرة فقمعت تمرد العربان ثم عادت إلى القاهرة ، وقد أمر السلطان بإرسال قوة ثابتة من العسكر تقيم بالبحيرة للمحافظة على الأمن والنظام(١) ، وفى ربيع الأول سنة ٩٢٠ هـ قامت عرب غزالة النازلين بالقرب من البدرشين بالجيزة بالافساد فى المنطقة فخرج إليهم الأمير طومان باى فوراً وفاجأهم وقبض على عدد كبير منهم ، بلغ عدد المشايخ والأعيان ثمانية عشر رجلا ، وعدد الأفراد مائة وخمسة وأربعين رجلا وقيدهم جميعاً بالسلاسل ، وبعث بهم إلى السلطان الذى أراد أن يصلبهم على أبواب القاهرة فمنعه بعض الأمراء قائلا له : « متى إن قتلت هؤلاء العربان نهبت عرب غزالة إليم الجيزة عن آخره » فعدل عن قتلهم وأمر بسجنهم فى المقشرة(٢) ، وجدير بالذكر أن عرب غزالة هؤلاء سوف ينتقمون بعد ذلك من طومان باى بعد أن يصير سلطانا فسوف ينضمون إلى قوات السلطان سليم فى أثناء قتاله مع طومان باى وسوف يخذلون طومان باى عندما يلجأ إليهم ويطلب مساعدتهم كما سنرى .

---

(١) المصدر السابق ص ص ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ مجلد واحد .

(٢) المصدر السابق ص ٩١٦ مجلد واحد (والمقشرة هى السجن الاحتياطى)

وفى شهر رجب سنة ٩٢١ هـ خرج طومان باى الدوادار على رأس قوة عسكرية تضم أحد الأمراء المقدمين وبعض أمراء عشروات وخاصكية قاصداً جبل نابلس لتأديب العربان هناك الذين تمردوا على نائب غزة وقطعوا الطرق ونشروا الرعب والفزع بين المسافرين وأصبح الدرب السلطانى بين غزة ومصر غير آمن[1].

[ ج ] إشرافه على جمع الضرائب :

وبالإضافة إلى المهام الجسيمة السابقة — التى كان يقوم بها طومان باى الدوادار والتى جعلت الناس تشفق عليه من كثرة سفره وترحاله حتى لقد كانوا يقولون — على حد تعبير ابن إياس — « يستمر سنته كلها فى هجاج وسفر »[2] — كان طومان باى يشرف على جمع الضرائب من الأقاليم — بحكم منصبه — فكان يذهب كل عام إلى الصعيد فى موسم الحصاد ليتولى بنفسه الاشراف على تحصيل الضرائب من الأهالى، وكان السلطان يخلع عليه الخلع بالقلعة، ثم ينزل فى موكب حافل وصحبته الأمراء المقدمون وأعيان المباشرين[3]. وكان بعد عودته يصعد إلى القلعة لمقابلة السلطان حاملا له الهدايا العينية والمادية، ويصف لنا ابن إياس الهدايا التى حملها الأمير طومان باى الدوادار إلى السلطان الغورى بعد عودة الأول من الصعيد فى موسم عام ٩١٥ هـ فيقول: « وفيه[4] طلع الأمير طومان باى الدوادار الكبير بتقدمة حافلة كون أنه جاء من الصعيد فكان من جملة التقدمة : عشرة آلاف دينار ومائة فرس

---

(١) ابن إياس المصدر السابق ص ٩٠٦ مجلد واحد
(٢) المصدر السابق نفس المكان .
(٣) المصدر السابق ص ص ٧٦٦، ٧٨٤، ٨٧١، ٩١٦، ٩٢١، ٩٢٧ مجلد واحد.
(٤) أى فى جمادى الأولى سنة ٩١٥ هـ .

ومائة بقرة وخمسمائة رأس غنم ، وثلاثون رأس رقيق وغير ذلك أشياء كثيرة »[1] .

وعلى الرغم من أن طومان باى كان لايتراخى فى جميع الضرائب ولا يتغاضى عن التقصير فى آدائها حتى وصل به الأمر إلى القبض على المتأخرين فى السداد وتقييدهم فى الحديد والمجىء بهم السلطان لينظر أمره فيهم فقد حضر فى موسم عام ٩١٩ هـ إلى العاصمة، وصحبته جماعة كثيرة من مشايخ عربان الصعيد والمدركين وجماعة كثيرة من الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل من أيام ابن ثعلب وغيره من المباشرين حتى قيل كان عليهم نحو من سبعين ألف إردب قمح »[2] — أقول على الرغم من تشدد طومان باى فى جمع الضرائب فإنه كان يراعى العدالة فى جمعها فلا يحصل لنفسه شيئاً زائداً عن الضرائب المقررة ، ولا يجمع الضرائب قبل أوانها كما كان يفعل سابقوه ، بل كان أيضاً يمنع كبار مساعديه من ظلم الناس واستغلالهم وجمع الضرائب منهم قبل ميعادها ويطلب من السلطان عزلهم ومعاقبتهم ، ومن هؤلاء « جانى بك » الذى كان قد عينه السلطان نائباً عن طومان باى فى الاستادارية فاستغل منصبه وأظهر الظلم والجور ، وصار يعارضه فى كثير من الأمور فشكاه طومان باى إلى السلطان الذى لم يكتف بعزله بل قبض عليه وحبسه حتى يؤدى ماعليه من أموال للدولة ، ويصف ابن إياس هذه الحادثة فى صفحات متفرقة من تاريخه نجتزىء منها قوله : « وكان سبب تغير خاطر السلطان على جانى بك أن الأمير طومان باى الدوادار أرسل مطالعة للسلطان وهو بالصعيد يشكو فيها من جانى بك هذا أنه صار يعارضه فيما يرسم به ويعاكسه

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨٥ مجلد واحد .

(٢) المصدر السابق ص ٨٨٩ مجلد واحد .

فيما يقوله فى أمر الديوان المفرد ، وكان جانى بك غير محبب للناس لايراعى من الأمراء أحدا ويأخذ الحمايات (من) المقطعين معجلا قبل أن تروى البلاد فصار معه سنة معجلة من المقطعين من الحماية والشياخة دايرة فى حساب الديوان المفرد ، وربما راحت على المقطعين ، ويرسم على الأمراء وأعيان الناس حتى يستخلص منهم جميع ما عليهم من الحمايات فى يوم واحد ، فضج منه الأمراء والعسكر ، فلما تزايد ظلمه وعسفه بالعسكر والفلاحين وضعفاء الناس أخذه الله تعالى من الجانب الذى يأمن إليه . . . فلما عزل ( السلطان ) جانى بك من التحدث فى الاستادارية . . . ورسم عليه[1] انتدب إلى حسابه نور الدين على البرماوى البردوار بالخدم الشريفة وجماعة من المباشرين فدققوا عليه الحساب وحاسبوه على الفتيل والنقير والقطمير والقليل والكثير حتى قيل حاسبوه على ما كان يدخل إليه من الضيافات والتقادم غير ذلك فقيل بقوا عليه ثلاثين ألف دينار على ما قيل واستمر فى الترسيم[2] حتى يكون من أمره ما يكون »[3].

[ د ] خروجه مع السلطان إلى السويس لتفقد الاسطول :

يتضح لنا من المناصب التى تولاها طومان باى والمهام الجسيمة التى ألقيت على كاهله والتى قام بها على خير وجه مدى المنزلة والعظمة التى وصل إليها طومان باى إبان سلطنة الغورى الذى قربه اليه وصحبه معه فى جميع رحلاته ونزهاته ومهامه الرسمية ، التى منها ذهابه فى سنة ٩٢٠ هـ إلى السويس حيث أصطحب معه طومان باى لتفقد المراكب التى كان يعدها السلطان الغورى لمحاربة البرتغاليين وكان عددها عشرين مركبا ،

---

(١) أى قبض عليه وسجنه

(٢) الترسيم . أحد السجون الاحتياطية .

(٣) ابن إياس المصدر السابق ص ص ٩٢٠ ، ٩٢٢ ، ٩٢٨ مجلد واحد .

وقد بلغت نفقات بناء تلك المراكب بما عليها من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلات السلاح نحو أربعمائة ألف دينار، وقد أقيمت بمناسبة تدشين هذه المراكب حفلة رائعة خلع فيها السلطان على أمير البحر سلمان كاملية بمخمل أحمر بسمور، وأنعم عليه بألف دينار ، كما خلع على النجارين والحدادين والقلافطة الذين اشتركوا في بناء هذه المراكب لكل واحد منهم خلعه سنية[1] .

[ هـ ] تعمير الجسور :

كما تجلت منزلة طومان باى لدى الغورى عندما انهار جسر الفيوم أمام الفيضان العالى للنيل سنة ٩٢٢ هـ ، وعزم السلطان على الذهاب بنفسه للكشف عن التصدع الذى أصاب هذا الجسر واتخاذ التدابير اللازمة لترميمه ، ولكن وقوع تمرد من بعض المماليك جعله يعدل عن السفر ولم يجد من ينيبه عنه فى هذه المهمة الخطيرة سوى الأمير طومان باى الدوادار فكلفه بها وعهد إليه اتخاذ ما يراه ضروريا ، فذهب طومان باى ودرس حالة الجسر الذى انهار وهدد بغرق إقليم الفيوم وقرر فورا عمل العمارة اللازمة لإصلاح الجسر وقد تكلفت نحو ثلاثين ألف دينار ثم عاد وأخبر السلطان بذلك[2] .

حسن سياسته :

وهكذا عظم شأن طومان باى وأصبح صاحب الكلمة فى دولة الغورى لا عن تجبر وصلف شأن من بلغوا منزلته من الأمراء السابقين ، ولكن عن لين وحسن سياسة يقول ابن إياس : « . . . تزايدت عظمة الأمير طومان باى الدوادار واجتمعت فيه الكلمة ، ومما عد من محاسنه أنه حجر على النقباء والرسل الذين على بابه ، ورسم لهم بألا يأخذوا من الغرماء

(١) المصدر السابق ص ص ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩٣٠ مجلد واحد.

(٢) ابن إياس ـ المصدر السابق ـ ج ٣ ص ص ٩٠٦ .

الذين يطلبون من بابه أكثر من نصفين فضة ، ومن يأخذ أكثر من ذلك لا يقف له على باب،وضيق عليهم أياما بسبب ذلك.. وبالجملة فعنده لين جانب وقلة أذى بخلاف من تقدمه من الدوادارية »[١]، ومما عد من محاسنه أيضا ما يرويه لنا ابن إياس عن كرمه وحبه للخير وتدينه وإغداقه على الفقراء والمحتاجين ومن ذلك ماحدث أثناء استعداده للخروج إلى نابلس لقضاء على تمرد العربان هناك يقول ابن إياس : « . . إن شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو يتمنى مائة دينار ذهبا وجملا وعبدا حتى يتوجه إلى الحجاز ، فأقام على ذلك مدة طويلة يتبلش بالأمراء كلما طلعوا إلى القلعة ونزلوا فأصبرهم وأبادهم شرا ، وحرمهم أن يشقوا من الصليبة ، فأرسل إليه الأمير طومان باى الدوادار خمسين دينارا ذهبا وجملا وعبدا ، وقال له : امض إلى الحجاز ، فقال له ذلك الفقير : احملني معك إلى القدس فأزوره قبل أن أحج ، فحمله معه لما سافر إلى نابلس » ويعلق ابن إياس على هذه الحادثة بقوله : « فعد ذلك من النوادر اللطيفة من الأمير الدوادار وكان فيه الخير ، وكان قليل الأذى بخلاف من تقدمه من الدوادارية »[٢] .

## حياته الأسرية :

أما عن حياة طومان باى الشخصية والأسرية فإنه بالبحث فى كتب التراجم وكتابات المعاصرين لطومان باى ـ التى بين يدى ـ لم أجد فيها ما يدلنا على نشأته الأولى وحياته الأسرية سوى بعض الأخبار الضئيلة جدا والمتفرقة فى تاريخ ابن إياس ، والتى تفيد أنه كان ابن أخ السلطان الغورى . وقد قدمه للسلطان الأشرف قايتباى على نحو ما ذكرت ، ثم بعض الأخبار التى تفيد أن طومان باى قد عقد قرانه فى جمادى الأولى

(١) المصدر السابق ص ٧٦٦ مجلد واحد .

(٢) المصدر السابق ص ٩٧٧ مجلد واحد .

سنة ٩١٠ هـ — على ابنة الأمير أقبردى الدوادار ، وكان ذلك بالقلعة وحضره القضاة الأربعة وسائر الأمراء والأعيان ، وكان الأمير طومان باى حينئذ فى مركز مرموق فقد جمع بين منصب شادية الشرابخاناة وتقدمة ألف، وقد زف إلى عروسه فى ذى القعدة من ذات السنة فى موكب حافل يصفه ابن إياس بقوله : « ... وزف لها الجهاز الحافل حتى رجت له القاهرة ، فلما كان ليلة الزفاف مشى فى زفة الأمير طومان باى الأتابكى قرقماس وسائر الأمراء قاطبة ، وبأيديهم الموكبيات الشمع الموقدة ، وكانت هذه الزفة تعادل زفة الأمير جانم قرابة الأشرف قايتباى لما تزوج بأخت خوند ابنة خاص بك »[1] ،كما يورد ابن إياس بعض الأخبار الأخرى كوفاة طفل صغيره عمره ثلاثة سنوات لطومان باى من سرية له فى شوال سنة ٩١٥ هـ وحزن طومان باى عليه ودفنه وقت صلاة الفجر على ضوء الفوانيس فى مدرسة الغورى بالشرابشيين بناء على أوامر السلطان . وخروج طومان باى إلى الخانكة لاستقبال بعض المماليك الجراكسة الوافدين من بلاد جركس لعلمه أن بعض أقاربه حضر ضمن هؤلاء المماليك، وقد أشيع أنه أخ السلطان الغورى كما قيل أنه ابن أخيه[2] ، الأمر الذى يفيد أن طومان باى جاء من بلاد جركس وهو فى سن الصبا وأن صلته بأسرته الأصلية وأقاربه فى بلاد جركس كانت قائمة .

## سياسة طومان باى فى مصر أثناء سفر الغورى إلى حلب :

عندما خرج السلطان الغورى إلى الشام سنة ٩٢٢ هـ لملاقاة سليم الأول العثمانى خلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وجعله

---

(١) المصدر السابق ص ص ٧٤٥ ، ٧٥٠ مجلد واحد .

(٢) المصدر السابق ص ص ٧٨٩ ، ٩٥٥ ، ٩٥٧ مجلد واحد .

نائب الغيبة بالقاهرة إلى أن يحضر من السفر فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة وكانت الناس عنه راضية »[1] فقد « رجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه المنادون تنادى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء . وأن لا أحد من الناس يمشى من بعد العشاء بسلاح ولا يشوش مملوك ولا غلام على متسبب ، وأن من كان له ظلامة أو حق شرعى على أحد ولم يدفعه فعليه بباب الدوادار، فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وكان الأمير الدوادار محببا للرعية والفقراء قليل الأذى »[2] .

وقد قام طومان باى بحفظ الأمن فى البلاد فقضى على فساد العربان ، إذ خصص لكل إقليم قوة عسكرية تحت قيادة أمير من الأمراء لحفظ الأمن ورعاية النظام[3] كما قضى على ظلم المماليك وعبثهم بالقاهرة . ويصف لنا ابن إياس بعض المظالم التى وقعت من الأمير ألماس والى الشرطة ومن حاجب الحجاب اللذين قاما باغتصاب أموال الأهالى بحجة القيام ببعض الاصلاحات وموقف طومان باى منهما فيقول : « وكان الأمير طومان باى فى كل وقت يقمع الأمير ألماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لأجل الدروب ، وقد أفحش فى الظلم فى هذه الحركة فكان يتفق مع أرباب الإدراك والخفراء فيجبوا له من سكان الخطط والحارات لأجل عمارة الدروب فجبوا له من الناس أموالا لها صورة . فكانت الخفراء إذا وقفوا على باب أحد من السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما يختارونه من ذلك . فإذا هرب صاحب الدار سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع لهم ما قرروه عليه ، والمرأة الأرملة يسمروا عليها بابها

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٩ .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٣١ .
(٣) المصدر السابق جـ ٣ ، ص ص ٣١ ، ٣٢

ويتركوها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم من الطاقة اللحاف أو الطراحة أو البساط أو غير ذلك . . ففعلوا فى هذه الحركة مالم يفعله هناد من وجوه الظلم والفساد ، وهم يزعمون أن فى ذلك نفعا للمسلمين فى عمارة الدروب ... ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع طولون إلى مشهد السيدة نفيسة إلى آخر السوق الطولونى على جميع الأملاك والدكاكين التى هناك وزعموا أنهم ينشئوا سورا ... يمنع هجمة العربان على حين غفلة ، وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس ... فلما بلغ الأمير الدوادار زجر ألماس وحط عليه ، وكان أشاع ذلك على لسان الأمير الدوادار ، فحلف الأمير الدوادار أيمانا مغلظة أن ماله علم بذلك وأبطل هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة ... ثم إن جماعة حاجب الحجاب قصدوا أن ينشئوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم يجبوا من سكان بركة الرطلى مالا له صورة بسبب قطع الطين الذى فى فم البركة فإنه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول المراكب للبركة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك أبطل هذه الفعلة أيضا ، ورسم بسد فم البركة رأسا حتى لاتدخل إليها المراكب »(١) .

ولم يكتف طومان باى بالضرب على أيدى الظلمة والعابثين بأموال الشعب ، بل عمل على إشاعة الأمن والطمأنينة والنظام فى جميع أرجاء العاصمة ، وذلك بتخصيص دوريات ليلية منتظمة تطوف بجميع أرجاء القاهرة لحفظ الأمن والنظام والقضاء على أعمال السلب والنهب التى كانت سائدة فى ذلك العصر فقد « رسم للأمير ألماس والى القاهرة ، بأن يطوف فى كل ليلة من بعد العشاء وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان يطوفون معه ، كل ليلة تنزل جماعة من المماليك من طباقهم بالنوبة ، ويطوفون مع الوالى إلى طلوع الفجر » ، ومن ثم فلا غرو أن نجد ابن إياس يعلق على حالة استتباب الأمن والنظام فى شتى أنحاء البلاد . ولم يكن هذا معهودا

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ص ٣٦ ، ٣٧ .

فى عصره — بقوله : « وقد ضبط الأمير الدوادار أحوال الديار المصرية فى غيبة السلطان ضبطا جيدا . . . فلم يقع فى غيبة السلطان فى القاهرة إلا كل خير ، وكان ذلك على غير قياس »[١].

وبجانب إشاعته الأمن والطمأنينة والنظام فى البلاد ، فقد ظهرت عدالة طومان باى وسماحته فى اطلاقه سراح المسجونين ظلما ، كما تجلت إنسانيته ومروءته فى الافراج عن المسجونين — رجالا ونساء — بسبب الديون التى عليهم بعد أن صالح أرباب الديون من ماله الخاص وأرضاهم ، وفى اطلاقه سراح جماعة من اللصوص الذين يرجى صلاحهم بعد أن استتابهم ، وأما المسجونون لارتكابهم جريمة القتل ، فقد أمر بقتل جماعة منهم ، يبدو أنهم قد ثبتت عليهم تهمة القتل العمد ، بينما أبقى على جماعة آخرين منهم فى السجون لحين حضور السلطان[٢] — يبدو لى — أنه إما لعدم توفر الأدلة الكافية ضدهم ، أو لأنهم من الشخصيات التى رأى طومان باى الابقاء عليها لحين حضور السلطان للنظر فى أمرهم .

كما لم تشغل حالة الحرب التى تمر بها البلاد طومان باى عن الاهتمام بعمارة الجسور لمقاومة الفيضان ، فعندما فاضت مياه النيل فى ذلك العام — ٩٢٢ هـ — قبل ميعادها ، وهددت الجسور ، وانهار بعضها بالفعل مثل جسر الفيض وجسر أبى المنجا وعجز المسئولون عن سدهما ، سافر طومان باى بنفسه لتفقد أحوال هذين الجسرين وبذل جهودا مضنية حتى سدهما حتى يروى أنه « كسر مراكب فى أساس هذين الجسرين والماء يقوى على ما يصنعون إلى أن أعان الله وسدهما » كما توجه إلى الفيوم للاطمئنان على الجسر الذى عمر حديثا هناك[٣] .

---

(١) المصدر السابق ﺟ ٣ ص ص ٣٦ .
(٢) ابن إياس المصدر السابق ﺟ ٣ ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) المصدر السابق ﺟ ٢ ص ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٧ .

الموقف بعد واقعة مرج دابق :

كانت هزيمة جيش الغورى ومقتله فى مرج دابق ( ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ ) مفاجأة مروعة ذهلت لها مصر وصعقت ، ولا غرو فقد خرج السلطان الغورى إلى شمال الشام قاصية الحدود المصرية يومئذ بجيشه الزاهر ليرد عادية الغزاة العثمانيين عن مصر ، فكانت مرج دابق قبرا له ولحريات مصر حيث « زال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر فكأنه لم يكن ، فسبحان من لايزول ملكه ولايتغير »(١) وكان صدى تلك النكبة عظيما فى البلاد فساد الحزن أرجاءها وملأ الذعر فجاجها وتنادى الناعون فى كل جانب من جوانب القاهرة ، يقول ابن إياس « وقام نعى السلطان فى ذلك اليوم ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء ، بسبب من قتل من العسكر وغيرهم ، ورجت القاهرة وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القيل والقال »(٢).

وقد انتهز هذه الفرصة كثير من العربان مثل عربان بنى عطيه والنعائم الذين نهبوا ضياع الشرقية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس من الغنم ، فتصدى لهم الأمير طومان باى الذى خرج إليهم فى خمسمائة مملوك وطاردهم واسترد مانهبوه من الأموال والمواشى والغلال ، وبعد عودته إلى القاهرة عمل على تهدئة النفوس فأشهر النداء بالأمان والاطمئنان وألغى جميع ما استحدث من ضرائب ومظالم فى عهد الغورى ، كما أمر بعرض من فى السجون عليه ، فلما مثلوا أمامه أطلق سراح كثير منهم . كما قام أيضاً اتباع

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٤٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٢ ، ٥٣ .

شيخ العرب أحمد بن بقر بعمليات قتل وسلب ونهب للعائدين من الشام « فقتلوا من العساكر والتجار مالا يحصى عددهم وأخذوا أموالهم وجمالهم والذى سلم من القتل عروه ، وجرى على العسكر من هؤلاء العربان مالم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان » ، كما عول بعض المماليك الجلبان على القيام بفتنة عظيمة ونهب خان الخليلي وقتل من فيه من التجار الأروام بحجة انتمائهم إلى العثمانيين وشماتتهم فى مقتل الغورى فمنعهم الأمير طومان باى الدوادار من ذلك[1] .

ومن الجدير بالذكر أنه منذ مجىء الأخبار بمقتل السلطان الغورى انقطع ذكر اسمه من الخطبة على المنابر واكتفى بذكر اسم الخليفة فقط ، وبعض الخطباء دعا بقوله « اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » واستمر الحال على ذلك نحو أربعين يوما . ومصر بلا سلطان ، وكذلك البلاد الشامية ، وفى أثناء تلك الفترة كان الجنود والأمراء العائدون من الشام يصلون إلى القاهرة زرافات ووحدانا ، وكان من بين الذين وصلوا إلى العاصمة قاضى القضاة الحنفية محمود بن الشحنة الذى كشف عن خيانة بعض أخصاء السلطان الغورى — فضلا عن خاير بك — مثل ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقجى ، الذين انضموا — بعد وفاة الغورى — إلى السلطان سليم والتفوا حوله . فأمر طومان باى باقتحام بيت السمرقندى والعادلى والقبض على أبنائهما وحاشيتهما ومصادرة أموالهما كما قبض على الأمير قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب الذى فر وترك القلعة نهبا ميسرا للسلطان سليم دون أن يبذل أدنى مجهود فى حمايتها أو الدفاع عنها ، أو ينقل مافيها من الذخائر والأموال[2] ، هذا ماحدث فى مصر إبان تلك الأيام العصيبة .

---

(١) ابن إياس - المصدر السابق ، ج٣ ص ص ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج٣ ص ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٧

أما فى الشام فإنه بعد أن انهزم الجراكسة وقتل الغورى فى معركة مرج دابق ، وكان ذلك بمخامرة خاير بك والغزالى بعد أن عهد إليهما السلطان سليم بتوليتهما مصر والشام ،[١] رجعت فلول جيش الغورى إلى حلب فانقلب عليهم أهلها واستولوا على ودائعهم عندهم ، وفتكوا بهم ، انتقاما لما حدث منهم فى تجريدة حلب الأولى[٢] فلاقوا منهم شرا مما لاقوا من العثمانيين ، بينما استقبل أهل حلب السلطان سليم بالترحاب والتهنئة بالفتح[٣] ، يقول القرمانى : « خرج أهل حلب بعلمائهم وصلحائهم حاملين المصاحف يستقبلون السلطان سليم ويهنئونه بالفتح ويسألونه الرفق والصفح فقابلهم السلطان سليم بالجميل ودخل مدينة حلب »[٤]، ثم استقبل الخليفة وأكرمه ولكنه وبخ القضاة الثلاثة لعدم تصديهم لظلم المماليك[٥] ثم تقدم نحو قلعة حلب التى هرب منها قائدها واللاجئون إليها ، وهنا أراد سليم أن يظهر احتقاره لرجال حاميتها فأرسل أمامه جنديا أعرج ، ومعه عصا ففتحت له الأبواب فى الحال ، وقد وجد فى القلعة نفائس كثيرة ،

---

(١) ابن العماد الحنبلى . المصدر السابق ، جـ ٨ ص ١٤٥

(٢) وهى التجريدة التى أرسلها الغورى إلى حلب سنة ٩٢٠هـ لمراقبة وقائع الحرب الدائرة بين سليم والصفوى ، ونزلوا ( جنود الحملة ) فى بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر والأذية لأهل حلب فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هذه الكسرة فأخذوا بثأرهم منهم » ( ابن إياس - جـ ٣ ص ٤٩ ) .

(٣) ابن الحمصى ( أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى الشافعى ) حوادث الزمان وأنباؤه ووفيات الأعيان وأبناؤه - مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٣٩ تاريخ ، وتوجد نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية فيلم رقم ٤٨٠ جـ ٣ ص ص ٦٨ ، ٦٩

(٤) القرمانى - المصدر السابق ص ٣١٥

(٥) ابن الحمصى - مصدر مخطوط سبق ذكره جـ ٣ ص ٦٨

كان قد وضعها السلطان الغورى والأمراء خوفا عليها فأصبحت لا حارس لها، وقد بلغ مقدار ما وجد بها من النقود مائة مليون دينار[١]، وعندما حضرت صلاة الجمعة وسمع سليم الخطيب يخطب باسمه ويقول : « خادم الحرمين الشريفين » سجد لله شكرا[٢] ، ثم خرج قاصدا دمشق فرحب أهلها بقدومه فدخلها فى يوم السبت مستهل رمضان سنة ٩٢٢ هـ ، وأمر ببناء قبة على قبر الشيخ محي الدين بن عربي ورتب عليها أوقافا كثيرة وصلى الجمعة بالمسجد الأموى حيث خطب باسمه ، ودانت له جميع مدن الشام بلا منازع ، ومكث بها مدة ثلاثة أشهر ونصف يرتب نظامها ويحكم أمورها ثم خرج قاصدا مصر فى يوم ٢٢ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ[٣].

وجدير بالذكر أن السلطان سليم - بعد استولى على الشام - لم يكن فى نيته الزحف على مصر وكان يريد الاكتفاء بذلك والعودة إلى بلاده بعد أن يتوصل إلى صلح مع المماليك تظل مصر بمقتضاه ، فى حوزتهم فى ظل السيادة العثمانية - كما سيأتى - ولكن خاير بك هو الذى زين له الزحف على مصر والاستيلاء عليها خوفا على نفسه من المماليك ، يقول ابن زنبل: إن « السلطان سليم لما أخذ حلب والشام قصد الرجوع إلى بلاده ، فأغواه خاير بك وقانبردى الغزالى وناصر الدين بن الحنش على التوجه إلى مصر ، وضمن له خاير بك أخذ مصر ، وذلك مكر منه فإنه علم أنه إن رجع

---

(١) ابن إياس - المصدر السابق ، جـ ٣ ص ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٢) ابن العماد الحنبلى . المصدر السابق ، جـ ٨ ص ١٤٥ .

(٣) الغزى (الشيخ نجم الدين بن بدر الدين رضى الدين بن أحمد) - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة - تحقيق جبرائيل سليمان جبور - طبعة المطبعة الأمريكية ببيروت ١٩٤٥ جـ ١ ص ٢٠٩ ، ابن الوكيل - المصدر المخطوط السابق - ورقة ٦١ ، ابن العماد الحنبلى ، جـ ٨ ص ١٤٥ ، القرمانى - المصدر السابق ، ٣١٥ .

السلطان سليم إلى أرض الروم لم تبق الجراكسة على خاير بك ولو ذهب إلى تخوم الأرض»[1].

أما جنود الغوري وأمراء جيشه فإنهم - بعد أن طاردهم الحلبيون، هاموا على وجوههم في الشام وتلقفتهم أيدي العربان فسلبوهم مامعهم من أسلحة ومتاع وظلوا يضربون في الأرض من بلد إلى بلد حتى وصلوا القاهرة وهم في أسوأ حال[2].

## تولية السلطان طومان باى :

عقب وصول الأنباء إلى مصر بمقتل السلطان الغوري وتشتت جيشه ساد الذعر والقلق والاضطراب جميع أنحاء البلاد، وحاول طومان باى (نائب الغيبة) أن يعيد الأمن، وأن يجمع شمل المصريين للدفاع عن مصر التي أحاطت بها الأخطار من كل جانب، ولا سيما بعد ورود الأخبار بأن «عدة مراكب وصلت إلى ثغر اسكندرية ورشيد تخشى أن تكون من عند ابن عثمان، وبدأ بالفعل في الاستعدادات الحربية لمقاومة الغزاة فقام «بعمل طوارق خشب وكفيات وبندقيات وغير ذلك من آلات الحرب.. (كما) بادر إلى عرض العسكر وقال لهم كونوا على يقظة وعبوا برقكم»[3]

ولكن طومان باى لم ينجح في إيقاظ المماليك إلى الأخطار المحدقة بالامبراطورية المصرية، فقد كان الجميع في انتظار وصول أمراء الجيش من الشام للنظر فمن يتولى عرش السلطنة في مصر، ماعدا الأمير قطباى نائب القلعة الذي كان يريد تنصيب طومان سلطانا على مصر قبل مجيء

---

(١) بن زنبل - المصدر السابق، ص ٤٢

(٢) المصدر السابق ص ص ٣٤، ٣٥، ٣٦

(٣) ابن إياس - المصدر السابق ج ٣ ص ٥٥

عسكر الشام[١] :

أما أمراء الجند بالشام فقد كانوا من جهة أخرى فى تنازع فيما بينهم حول من يلى أمور السلطنة فى مصر ، فكان الأمير جان بردى الغزالى يريدها لنفسه ، بينما يرى المماليك الجلبان أن يسلطنوا ابن السلطان قانصوه الغورى، وأما أمراء القرانصة ، فإن كلا منهم كان يريد أن يستأثر بذلك المنصب ، واشتد الخلاف فيما بينهم، ولم ينقذهم من هذا الموقف الخطير سوى اقتراب العثمانيين فى زحفهم منهم ، واقتراح الأمير علان بأن يذهبوا إلى عاصمة السلطنة لينظروا أمرهم ويولوا عليهم أشجعهم وأكثرهم كفاءة على مواجهة الخطر الذى تواجهه الامبراطورية ، فاستصوب الجميع رأيه واتجهوا إلى مصر[٢] :

وجدير بالذكر أن جان بردى الغزالى - منذ فقد الامل فى توليته السلطنة وهو بالشام - بدأ يعرقل عودة الجند إلى مصر[٣] وعندما فشل فى ذلك رجع مع العسكر إلى مصر وهو كامن لهم الغدر لكونهم لم يسلطنوه، وأضمر على معاكستهم، ومال بقلبه إلى رأى خاير بك فى تحريض السلطان سليم على أخذ مصر[٤] أو بعبارة أخرى قصد الغزالى بذهابه إلى مصر أن يفت فى عضد المصريين ويكون عونا وجاسوسا للعثمانيين[٥] كما سنرى فى الاحداث المقبلة .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ نفس المكان .

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ٣٥ ، ٣٦ ، السير وليم موير - المرجع السابق ، ص ١٧٥ .

(٣) ابن إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٥

(٤) ابن زنبل - المصدر السابق ص ٣٦ ، وانظر ابن العماد الحنبلى - المصدر السابق ، جـ ٨ ص ١٤٥ .

(٥) عمر الاسكندرى ، وسليم حسن - تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر : مطبعة المعارف بالفجالة بالقاهرة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م ص ١١

رجع أمراء المماليك إلى مصر وتشاوروا فى الامر ، وأخيرا وقع الاختيار على الامير طومان باى الدوادار ( نائب الغيبة ) ليكون سلطانا على مصر خلفا للغورى ، فرفض قبول هذا المنصب بشدة والامراء مصرون ويضغطون عليه لقبوله ، حيث لم يروا بينهم من هو أصلح منه لتولى عرش السلطنة ويصف ابن إياس هذا الموقف بقوله : « اجتمع رأى الجميع على سلطنة طومان باى الدوادار وترشيح أمره لأن يلى السلطنة فصار يمتنع من ذلك غاية الامتناع ، والأمراء كلهم يقولون : ماعندنا من سلطنه إلا أنت ولامحيد لك عنها طوعا أو كرها »[١]. والحق أن طومان باى كان على صواب فى رفضه قبول هذا المنصب فى هذه الفترة الحالكة السواد من تاريخ مصر « فقد كان - على حد تعبير السير وليم موير - منصبا مظلما لا يستحق الشكر . . . لأن سوريا قد ضاعت ، ولأن الجيوش تفرقت والأمراء شتتوا ، والمماليك كانوا فئة باغية »[٢] .

وأمام إصرار طومان باى على الرفض استعان أمراء المماليك بالشيخ أبى السعود الجارحى[٣] فى إقناعه بقبول السلطنة ، وأمام الشيخ أبى السعود ذكر طومان باى أسباب امتناعه عن قبول السلطنة ومنها أن خزائن بيت

---

(١) ابن إياس - المصدر السابق - ج ٣ ص ٥٧ .

(٢) السير وليم موير - المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣) هو العارف بالله تعالى الشيخ محمد أبو السعود الجارحى ، كان يقيم فى زاويته بكوم الجارح وكان المماليك وجميع أهل مصر يعتقدون فى ولايته ، وقد ابتدأ حياته بحفظ القرآن ثم سلك طريق العلم والتفقه فى الدين حتى أصبح من كبار علماء الفقه والنحو ، ثم تفرغ فى أخريات حياته للعبادة ، وقد توفى سنة ٩٢٩ هـ / ١٥٣٢ م ( انظر ترجمته الكاملة فى كتاب - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة - لنجم الدين الغزى - مصدر سبق ذكره ج ١ ص ص ٤٧ = ٤٩ ) .

المال خاوية ليس فيها درهم ولا دينار ، وليس لديه ما ينفقه على الجند ، وأن السلطان سليم استولى على الشام ، وهو زاحف على مصر والأمراء يرفضون الخروج ثانية للقائه ، وأنه إذا تولى منصب السلطان فإن الامراء لا يلبثون أن يخرجوا عليه ويخلعونه ويعتقلونه وان يستبقونه فى المنصب إلا مدة وجيزة ، فأحضر لهم الشيخ مصحفاً شريفاً وحلف الأمراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم إذا سلطنوه لا يخونونه ، ولا يغدرون به ولا يخامرون عليه ، وسوف يرضون بقوله وفعله، فحلف الجميع على ذلك كما حلفوا أمام الشيخ على ألا يعودوا إلى ما كانوا عليه من ظلم الناس ، ولا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما استحدثه السلطان الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كان على الدكاكين من المشاهرة والمجامعة (١) ، ويجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، وتسير الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسباً ، حلف الأمراء على ذلك أمام الشيخ الذى ذكرهم « بأن الله ما كسركم وذلكم وسلط عليكم ابن عثمان إلا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ، فقالوا له : تبنا إلى الله تعالى من اليوم عن الظلم » ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود بعد الاتفاق على ترشيح الأمير طومان باى الدوادار للسلطنة ، وبعد أن أخذ عليهم الشيخ العهد بنصرته والوقوف بجانبه وعدم العودة إلى المظالم(٢) .

وفى حفل متواضع — نظراً لحالة مصر السياسية والاقتصادية — خال

---

(١) المشاهرة والمجامعة — هى ضريبة تجمع من السوقة وتدفع للمحتسب كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية ، وقد نتج عن فرض هذه الضريبة أن الباعة اضطروا إلى تعويض قيمتها عن طريق رفع أسعار البضائع فاشتد الغلاء ، وقد ألغاها طومان باى .

(٢) ابن إياس — المصدر السابق . جـ ٢ ص ص ٥٧ ، ٦٩ .

من مظاهر الأبهة والعظمة المعهودة فى مثل تلك المناسبات ، تمت مبايعة الأمير طومان باى ( نائب الغيبة ) سلطانا على مصر وذلك عند باب السلسلة بالقلعة ، وقد حضر مراسيم المبايعة أمراء المماليك والخليفة السابق يعقوب ومعه هارون نجل الخليفة محمد المتوكل على الله الذى أسره السلطان سليم بالشام ، وأولاد ابن عمهم خليل ، ولم يحضر من القضاة سوى قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود بن الشحنة الذى نجا من أسر السلطان سليم أما بقية قضاة القضاة الذين وقعوا فى الأسر مع الخليفة ، فقد حضر نوابهم بالقاهرة وعندما اكتمل المجلس أظهر الخليفة السابق يعقوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله ، تضمنت أنه وكله فى جميع أموره ، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها وكالة مفوضة ، وثبت ذلك على يد القاضى شمس الدين بن وحيش فاعتمد القضاة هذه الوكالة وأقر المجلس خلافة يعقوب نيابة عن ابنه محمد المتوكل على الله نظرا لوقوعه فى الأسر ، فقام الخليفة يعقوب بمبايعة الأمير طومان باى ( نائب الغيبة ) سلطانا على مصر وشهد عليه بذلك القضاة ، ويصف ابن إياس هذه الحفلة المتواضعة بقوله : « فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة وهى الجبة السوداء والسيف البداوى فأفيض عليه شعار الملك وتلقب بالملك الأشرف مثل قريبه الغورى ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ولا وجدوا له فى الزرد خانات لا قبة ولا طيرا ولا الغواشى الذهب ، فركب من سلم الحراقة التى بباب السلسلة والخليفة قدامه ، فطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على كرسى المملكة ، وقبل له الأرض ودقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته ... » ، وخطب باسمه على منابر مصر والقاهرة بعد أن ظل الخطباء يخطبون باسم الخليفة العباس ما يقرب من خمسين يوما . وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ[1] .

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٩٦ ، ٧٠

# الفصل الثالث

## المقاومة الرسمية للغزو العثمانى

### أولا : وقعة غزة ( ٢٤ من ذى القعدة ٩٢٢ هـ )

منذ ورود الأخبار بمقتل الغورى وهزيمة جيشه وطومان باى (نائب الغيبة ) يجد فى الاستعدادات الحربية لمقاومة الغزاة ، ولكن أمراء المماليك كانوا يثبطون همته انتظارا لوصول أمراء جيش الغورى من الشام لاختيار السلطان الجديد[1] . ولكن بعد أن أصبح طومان باى السلطان الشرعى على البلاد وصار من واجبه القيام بتعبئة الجهود للدفاع عن مصر ، فأمر بجمع المماليك الذين لم يسافروا صحبة الغورى بصرف لهم نفقتهم ومرتباتهم ، وتشاور مع الأمراء المقدمين فى أمر قيادة هذه التجريدة فاتفق الجميع على إسنادها إلى الأمير جان بردى الغزالى - الذى وصل إلى مصر بعد تنصيب طومان باى سلطانا عليها - فأسند إليه طومان باى نيابة الشام أيضا ، وقد شجعه على ذلك وصول الأخبار بمقاومة أهل الشام حول دمشق زحف العثمانيين إليها بزعامة أمير عربان حماه ناصر الدين بن الحنش الذى أرسل يطلب النجدة من طومان باى لإيقاف الزحف العثمانى على بقية الشام[2] ، ثم جاءت الأخبار باستيلاء العثمانيين على الشام كله ، وأنهم بصدد الزحف والاستيلاء على غزة ، فاضطربت القاهرة ، وأعلن السلطان خروج الحملة على وجه السرعة بقيادة الغزالى لإنقاذ غزة من أيدى العثمانيين ، وزاد الإضطراب وصول الأخبار باستيلاء جيش سليم على غزة بالفعل، الأمر

---

(١) ابن إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ٥٥

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ابن زنبل المصدر السابق ص ٤٥ ، ٤٦ .

الذى جعل طومان باى يعلن التعبئة العامة ، ويدعو الشعب إلى المشاركة فى الدفاع عن مصر ، ويصف ابن إياس هذه اللحظات الحاسمة فى تاريخ مصر بقوله « فلما تحقق السلطان ( طومان باى ) من هذه الأخبار أشيع أنه يخرج إلى لقاء ابن عثمان بنفسه ونادى فى ذلك اليوم بأن الزعر[1] والصبيان الشطار والمغاربة وكل من كان مختف على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه أمان الله والعرض لهم فى الميدان وأن السلطان يصرف لهم الجوامك[2] والمركوب »[3] كما استحث بقية الأمراء الذين تباطأوا عن الخروج إلى الريدانية استعدادا للسفر إلى غزة بسبب النفقة وعنفهم بقوله: « اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم ، فإن بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار . . . وما عندى نفقة أنفقها عليكم »[4] ، فبدأ الأمراء فى الخروج بجنودهم ، كما قام السلطان باستعراض الآلات والمعدات الحربية التى جهزها لهذه الحملة ، لرفع الروح المعنوية للجنود ، ويصف ابن إياس هذه المعدات بقوله : « وفى ذلك اليوم ( الأحد ١٣ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ ) عرض السلطان ( طومان باى ) عجلة من خشب تجرها أبقار وفيها رماة بالبندق الرصاص ، وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك ، وعرض جمالا وفوقها مكاحل[5] ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال ، وعرض طوارق[6] خشب بسبب الرماة

---

(١) وهم العامة وسواد الناس

(٢) الجوامك جمع جامكية وهى المرتب ( دائرة المعارف الإسلامية جـ ١٠ ص ٤٤٢ )

(٣) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠

(٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ٨١

(٥) مكاحل : جمع مكحلة وهو المدفع

(٦) الطوارق : جمع طارقة وهى شىء كالدرع يحملها المقاتل ثم ينصبها أمامه وقاية.

بالنشاب فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال »[1] ، وفى يوم الخميس ١٧ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ كان خروج آخر أمير من أمراء تلك الحملة التى كانت فى طريقها إلى غزة . والتى بلغ عدد جنودها عشرة آلاف جندي[2] .

تقابلت مقدمة الجيش المملوكى بقيادة جان بردى الغزالى مع طلائع الجيش العثمانى بقيادة سنان باشا فى يوم الأحد ٢٤ من ذى القعدة سنة ٩٢٢ هـ بالقرب من بيسان ، وكانت الهزيمة النكراء من نصيب الجيش المملوكى حيث « قتل منهم من قتل وأسر منهم من أسر ومن سلم . . . فر منهزما[3] » حتى أن الغزالى نفسه وقع على الأرض والتفت حوله الجنود العثمانية وأوشكوا أن يقتلوه ولم ينقذه من أيديهم سوى « الزعر من غلمانه » الذين قاتلوا دفاعا عنه وقتلوا كثيرا من الإنكشارية وخلصوه وهو جريح ، واستولت الجنود العثمانية على الخيل والجمال والأمتعة والأسلحة الخاصة بالمماليك[4] .

أما سكان مدينة غزة فقد وصلتهم أنباء كاذبة عن انتصار جيش الغزالى على العثمانيين ومقتل قائدهم سنان باشا ، فاشتعلت روح المقاومة فى نفوسهم ، فهاجموا الحامية العثمانية واستولوا على أمتعتهم وأحرقوا خيامهم ، وقتلوا من فى المعسكر ومن فى المدينة من الجنود العثمانيين ولم يبقوا على أحد منهم ، وقد بلغ عدد قتلى العثمانيين حوالى أربعمائة قتيل . فلما رجع سنان باشا بعد انتصاره على جيش الغزالى ورأى ما حل بعسكره على أيدى

---

( ) ابن إياس ج ٣ ص ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) ابن زنبل المصدر السابق ص ٤٦

(٣) ابن الحمصى ، مصدر مخطوط سبق ذكره ج ٣ ص ١٢٠

(٤) ابن إياس ، المصدر السابق ج٣ص٨٧ ، ابن زنبل المصدر السابق ص٤٧

سكان غزة ، أعمل فيهم السيف « فقتلوا منهم مالا يحصى عدده »[1] .

أما سبب هزيمة المماليك فى هذه الموقعة - على الرغم من استبسالهم فى القتال ، وقتلهم الاعداد الكثيرة من الجيش العثمانى[2] - فيرجع ذلك إلى أن الغزالى - وكان يضمر السوء لعدم توليه السلطنة ومخامرته للسلطان سليم - لم ينتظر بالويدانية حتى يكتمل اجتماع الجيش بكل جنوده ومعداته ، ثم يخرج به كقوة متماسكة تستطيع أن تتصدى للجيش العثمانى وتوقع به الهزيمة ، ولا سيما وأن عدد الجنود المملوكية التى خرجت من مصر فى هذه الحملة كان عشرة آلاف وهو عدد لايستهان به - فضلا عن فروسيه المماليك وشجاعتهم - إذا ماقورن بالقوة العثمانية التى كانت صحبة سنان باشا ، ولكن الغزالى آثر الخروج « إلى التجريدة قبل العسكر بمدة أيام ، وصار الأمراء والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد ، فلما أبطأوا على الغزالى جمع بعض عربان وتقدم إلى غزة »[3] ، فاصطدم بالقوات العثمانية بفئة قليلة لم تلبث أن انهزمت[4] .

هذا بالإضافة إلى أن الجيش العثمانى استخدم اثناء القتال رماحا بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ، ويلقونه على الأرض ، وكان الغزالى نفسه ضحية هذه الكلاليب ، كما استخدم العثمانيون البندق ، يقول ابن زنبل « ولا ضرهم إلا البندق فانه يأخذ الرجل على حين غفلة لا يعرف من أين جاءه ، فقاتل الله أول من صنعها ، وقاتل من يرمى بها على من يشهد لله بالوحدانية »[5] ، وهذا فضلا عن كثرة العثمانيين فى العدد وضخامة العدد فقد كانوا « مثل الجراد المنتشر لايحصى عددهم . . . معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر »[6] .

(١) ابن اياس جـ ٣ ص ٨٨ (٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ٤٧
(٣) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٦
(٤) عمر الاسكندرانى وسليم حسن - المرجع السابق ص ١١
(٥) ابن زنبل المصدر السابق ص ٤٧ .
(٦) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٧ .

فاذا ما اجتمعت هذه العوامل كانت الهزيمة - لاشك - فى الجانب المملوكى ، ويصف ابن إياس هول هذه المعركة بقوله « فوقع بين الفريقين هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصى ... ولم ينج من عسكر مصر فى هذه المعركة إلا من طال عمره »[1] ورجعت فلول المماليك إلى مصر وهم فى أسوأ حال .

ثانياً — واقعة الريدانية ( ٢٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ ) :

( ا ) مقدمات الواقعة :

بعد خروج حملة غزة بأيام قليلة وصل وفد من قبل السلطان سليم مكون من خمسة عشر رجلا وصحبتهم مصرى يدعى عبد البر بن محاسن[2] وثلاثة من الأعراب الذين دلوهم على طريق الدرب السلطانى غير المطروق مقابل رشوة ، وبذلك نجا الوفد من الوقوع فى أسر جيش الغزالى ، فأمر السلطان طومان باى بقتل الأعراب وسجن ابن محاسن ، وكان هذا الوفـــد يحمل كتابا من سليم إلى طومان باى ، ينفى فيه شرعية سلطنة طومان باى ، بينما يضفى فيه على نفسه تلك الشرعية ، متخذا من وجود الخليفة العباسى والقضاة فى حوزته مبررا لذلك ، ويطلب منه الاعتراف بالسيادة العثمانية ، وإلا فعليه أن يتحمل مغبة ذلك ، يقول الكتاب : « من مقامه السعيد إلى الأمير طومان باى ، أما بعد ، فإن الله قد أوحى إلى بأن أملك البلاد شرقاً وغرباً . كما ملكها الاسكندر ذو القرنين ، إنك مملوك تباع وتشترى ولا تصلح لك ولاية وأنا ملك بن ملك إلى عشرين

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٦

(٢) كان يشغل منصب كاتب الخزانة لدى الاتابكى سودون العجمى ، فلما قتل أثناء موقعة مرج دابق واستولى سليم على حلب والشام وانضم إليه ابن محاسن مع من انضم من الخونة من أمثال يونس العادلى والسمرقندى ثم جاء صحبة الوفد .

جداً ، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة ... وإن أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا وكذلك الخطبة وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة إلى مصر ، ولنا من الشام إلى الفرات وإن لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل إلى مصر وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل وأقتل الأجنة التى فى بطونهن من الجراكسة »[1] .

وهذه الرسالة تعطينا حقيقتين هامتين : إحداهما — عدم اعتراف سليم بسلطنة طومان باى على مصر وتسلطه على شرعية حكم مصر استنادا إلى وجود الخليفة العباسى والقضاة فى حوزته ، وإن كان هذا الوجود مشوبا بالإكراه والقهر ، والثانية — أنه لم يكن فى تخطيط سليم غزو مصر بجيوشه فى حالة استجابة طومان باى لمطالبه وهى قبول السيادة العثمانية .

وكان لهـــذا الوفد العثمانى — بجانب توصيل رسالة سليم إلى طومان باى — مهام أخرى هى الاتصال ببعض الأروام فى خان الخليلى للحصول على معلومات عن حالة مصر واستعداداتها ، وقد قبض على هؤلاء الجواسيس وسجنوا ، وتسليم عدة رسائل أخرى لبعض أمراء المماليك والمباشرين وأعيان الديار المصرية لاستمالتهم إلى جانب السلطان سليم وتحريضهم على الخروج على طومان باى ، كما حضر صحبة الوفد حوالى أربعون عثمانيا اختفوا فى القاهرة فور وصولهم للتجسس لحساب العثمانيين ، وتوصيل عدة رسائل أخرى من الخائن خاير بك إلى بعض الأمراء المقدمين لاغرائهم بالدخول فى طاعة السلطان سليم[2] .

---

(١) ابن إياس — المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٨١ ، ٨٣ .
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

أما موقف السلطان طومان باى والمماليك من الوفد العثمانى ورسالة السلطان سليم ، فقد جنح طومان باى إلى السلام ورأى أن يجيب سليما إلى مطالبه حقناً لدماء المسلمين، بينما قام الأمير علان الدودار الكبير بقتل الوفد العثمانى[1] ، وأعلن عزمه على القتال مخاطبا طومان باى بقوله : « رأى أن نقاتل عن بلادنا وحريمنا وأرزاقنا أو نقتل عن آخرنا » وانتهى الأمر إلى ضرورة مقاومة الغزاة[2] .

(ب) الاستعدادات للحرب :

كان طومان باى فى موقف لا يحسد عليه ، فالخزائن خاوية ، والجنود لم يعد لهم هم سوى السلب والنهب ، والأمراء عصاة والفوضى ضاربة أطنابها ، والناس فى قلق وذعر لا يعرفون المصير ، والخشية من العدو الزاحف مفزعة ، والعربان يناصبون الجراكسة العداء ، ويزيدون فى فزع الناس بفتكهم ونهبهم ، ومن ثم وجد طومان باى صعوبات لا حد لها فى سبيل الاستعداد لقتال فرض عليه فرضاً وقهر عليه قهراً ، وعلى الرغم من ذلك كله استطاع بما وسعه من حيلة وجهد ، وبما أوتى من إيمان وشجاعة وجلد ،وبما بذله من مجهودات خارقة أن يعيد تنظيم جيشه — ولا سيما بعد هزيمة غزة وتمزق هذا الجيش — وأن يزوده بالمدفعية والبنادق والعربات ، وأن يقيم الاستحكامات اللازمة ، وأن يضع الخطط للدفاع عن مصر ، فعمل أولا على استرضاء المماليك الذين تمردوا بسبب قلة النفقة وبدأ يدبر الأموال اللازمة لنفقة الجنود ، بالطرق المشروعة

---

(١) يرى ابن إياس أن السلطان طومان باى هو الذى أمر باغراق هذا الوفد فى النيل حينما اتضح موقف أمراء المماليك وإصرارهم على القتال . المصدر السابق جـ ٢ ص ٨٨ .

(٢) ابن زنبل — المصدر السابق ص ص ٤٣ ، ٤٤ .

حيث رفض اقتراح بعض الأمراء عليه بالاستيلاء على الأملاك والأوقاف والرزق والإقطاعات ليستعين بها على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر اقتداء بما فعله الأشرف قايتباي والغوري — رفض ذلك قائلا: « ما أحدث في أيامي مظلمة أبداً » ، ويعلق ابن إياس على ذلك بقوله : « ولو فعل ذلك لجاز وقالوا يعذر لأجل دفع العدو وما في الخزائن مال ولكن وفقه الله تعالى إلى فعل الخير[1] » .

هذا وقد اقتصر طومان باي في جمع الأموال على الطبقة الحاكمة وأتباعهم الذين أثروا عن طريق جمع الأموال ظلماً من الشعب ، ففرض مبالغ معينة على أولاد السلاطين السابقين وأولاد الأمراء والمباشرين والخدام ، كما أخذ من ابن السلطان الغوري مبلغاً كبيراً من المال ، وكان السلطان الغوري قد خصص لولده قبل أن يسافر إلى الشام مائة ألف دينار ، كما قام طومان باي ببيع التحف والذخائر والأسلحة القديمة والأقمشة والصوف والسمور والبعلبكي ، وغير ذلك من الأشياء الثمينة من أجل توفير الأموال اللازمة للنفقة ورواتب الجند[2] .

وفي الوقت ذاته كان طومان باي يعمل بهمة ونشاط على تزويد جيشه بالمدفعية والبنادق والعربات وقد أقام معسكراً في الريدانية تجتمع فيه الجنود وتستعرض الأسلحة قبل خروج الجيش لملاقاة العثمانيين وفي مواقع متفرقة من تاريخ ابن إياس نجد وصفاً دقيقاً لتلك الأسلحة والاستعدادات العسكرية الضخمة التي بذل طومان باي جهوداً شاقة في سبيل توفيرها لجيشه ، يقول ابن إياس : « وفي يوم الإثنين ثاني عشره[3] أخرج السلطان

---

(١) ابن إياس المصدر السابق ج ٣ ص ٨٤ .
(٢) ابن إياس المصدر السابق ج ٣ ص ٨٥ .
(٣) أي ١٢ من ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ .

الزردخانة الشريفة التي يخرجها صحبة العسكر فجلس بالميدان[١] وانسحبت قدامه العجلات الخشب التي صنعها بسبب التجريدة ، فكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانيين عربة ، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار وفيها مكحلة نحاس ترمي بالبندق الرصاص ، فنزل السلطان من المقعد وركب وفي يده عصا ، وصار يرتب العجلات في مشيها بالميدان ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة طارقة ، ومحملة أيضاً باروداً ورصاصاً وحديداً ورماح خشب وغير ذلك ، وقدام العجلات أربع طبول وأربع زمور ، وقدامها من الرماة نحو مائتي إنسان ... وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم يرمون بالنفط قدام العجلات ... »[٢] ، وفي موضع آخر نجده يذكر « وفي يوم الثلاثاء عشرينه[٣] لبس العسكر آلة السلاح وخرجوا للعرض بالريدانية بحضرة السلطان، وفي ذلك اليوم صارت الأمراء المقدمون يخرجون إلى الريدانية ، وهم الأمراء الذين تعينوا للتجريدة ، وصاروا يخرجون شيئاً بعد شيء وهم بأطلاب حربية ومماليكهم لابسة آلة الحرب وهم على جرائد الخيل، ثم خرج الأتابكي سودون الدواداري وجان بردي الغزالي نائب الشام وأركماس أمير سلاح... ولم يبق بها [٤] من الأمراء والعسكر إلا القليل، وهذه التجريدة أكثر عسكرا من التجريدة التي خرجت مع السلطان الغوري ، وكان هـذا السلطان ( طومان باي ) له عزم شديد في عمل هذه العجلات وسبك المكاحل وعمل البندق الرصاص ، وجمع من الرماة ما لا يحصى ، وكان السلطان طومان باي

---

(١) يقصد الريدانية وهي مكان تجمع الجنود قبل التجمع لملاقاة العدو .

(٢) ابن إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ٨٩ .

(٣) أي ٢٠ من ذي الحجة سنة ٩٢٢ هـ .

(٤) يقصد مصر .

همة عالية ومقصد جميل ولعل الله تعالى أن ينصره على ابن عثمان ... وكان ابن عثمان باغياً على عسكر مصر وقد عاداهم وتعدى عليهم بغير سبب ... »[١] .

ولم يدخر طومان باى وسعا فى سبيل تجهيز جيشه بأحدث ما يمكنه الحصول عليه من سلاح فلم يكتف بما لديه من أسلحة وجنود، بل استعان بحاكم جزيرة رودس الذى أمده بألف رام يرمون بالبندق الرصاص ، كما أرسل إليه عدة مراكب فيها بارود فوصلت إلى ثغر دمياط ومنه إلى القاهرة[٢] .

وهناك نصوص أخرى ذكرها ابن إياس فى صفحات متفرقة من كتابه يصف فيها ضخامة هذه الاستعدادات العسكرية وتوضح الجهود الشاقة التى بذلها هذا السلطان فى سبيل الدفاع عن مصر[٣].

وأما عن التحصينات والاستحكامات التى أقيمت للدفاع عن مصر ، فإن السلطان طومان باى كان قد عقد العزم — بعد أن استكمل تنظيم جيشه وتسليحه والتفتيش عليه بالريدانية — على الخروج ليلا إلى الصالحية لملاقاة جيش سليم العثمانى وهو منهوك القوى ، فمنعه الأمراء من التوجه إلى الصالحية ، وقالوا له : مايقع بيننا وبينه قتال إلا فى الريدانية «[٤]ومن ثم

---

(١) ابن إياس المصدر السابق ج ٣ ص ص ٩١-٩٢ :

(٢) ابن الحمصى - مصدر مخطوط سبق ذكره ج ٣ ص ١٢٠

(٣) أنظر ابن إياس - المصدر السابق ج٣ ،ص ص ٩٣ ، ٩٦ .

(٤) ابن إياس - المصدر السابق ج ٣ ص ص ٩٢ - ٩٣، السيد رجب حراز - المرجع السابق ص ١٧٧ .

بدأ طومان باى على الفور فى عمل الاستحكامات حول الريدانية، ولاسيما بعد أن جاءته الأخبار بخروج سليم بجيشه من غزة ووصول مقدمة ذلك الجيش إلى العريش ، فأمر بحفر خندق من سبيل علان إلى الجبل الأحمر إلى غيطان المطرية ، ونصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل ، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة ، كما اهتم السلطان بعمل حائط يستتر به المكاحل التى نصبها بالريدانية[١] ، وقد اشترك السلطان طومان باى بنفسه فى إقامة هذا الحائط مع البنائين الأمر الذى أثار الحماس فى الجند فاشتركوا معه ، يقول ابن إياس « ... إن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين ، فلما رأى العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه صارت المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق وعمل الحائط التى تستر المكاحل »[٢] .

أما عند تعبئة الجيش وحشد الحشود استعداداً لملاقاة العثمانيين ، فإن طومان باى لم يقتصر فى ذلك على العنصر المملوكى فحسب ، بل رأيناه — كما سبق أن ذكرنا — يعلن التعبئة العامة منذ إعداد حملة غزة ، حتى أن الغزالى نفسه حينما خرج مبكراً قبل اكتمال خروج أمراء المماليك خرج معه بعض طوائف العربان فى حملته[٣] وبعد هزيمة غزة توافدت طوائف العربان من غزالة ومحارب ومن عربان الهوارة ونزلوا بالجيزة ولحق بهم كثير من العربان ثم دخلوا إلى الرميلة[٤] وانتظروا بها حتى يعرضهم السلطان

---

(١) ابن الحمصى مصدر مخطوط سبق ذكره ص ص ١٢٠ .

(٢) ابن إياس المصدر السابق ج ٣ ص ٩٣ .

(٣) المصدر السابق ج٣ ص ٨٠ ، ٨٦ .

(٤) الرميلة مكانها الآن ميدان صلاح الدين بالقلعة فى القاهرة المعروف بالمنشية ابن زنبل المصدر السابق - هامش ٢ ص ٣٩ .

بالريدانية[١]، كما لبى داعى الجهاد للدفاع عن الوطن بعض المغاربة فحضروا « وبأيديهم صناجق بعلبكى أبيض وكندى أحمر وهم يقولون الله ينصر السلطان »[٢] ، هذا فضلا عن « الجم الكثير من النجارين والحدادين الذين تعينوا للسفر مع التجريدة فخرجوا إلى الرميلة .. ودخلوا من باب زويلة وشقوا من القاهرة فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم واصطفت الناس على الدكاكين... وكان يوماً مشهوداً وارتفعت الأصوات له بالدعاء بالنصر على ابن عثمان الباغى وتباكى الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل ، والهمة العالية من السلطان فيما صنعه ، واستمروا شاقين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا إلى الريدانية »[٣] وقد بلغ عدد من احتشد فى الريدانية من العساكر السيفية والمماليك الجلبان ومماليك الأمراء والعربان وغيرهم من عامة الشعب نحو الثلاثين ألفاً بأسلحتهم المختلفة من مدافع وبنادق وطوارق مستعدين وراء الخندق انتظاراً للقاء العثمانيين[٤]، وقيل إن عدد جند مصر كان حوالى أربعين ألفاً[٥] .

( حـ ) الزحف العثمانى إلى مصر :

زحف السلطان سليم بجيشه من غزة واستولى على العريش ثم واصل زحفه إلى أن وصل إلى قطيا أو قطية[٦] ، وقد أنهكه السفر وقلة المئونة،

---

(١) ابن الحمصى مصدر مخطوط سبق ذكره حـ ٣ ص ١٢٠ ، ابن اياس حـ ٣ ص ٨٨ .
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٩٨ .
(٣) ابن إياس المصدر السابق حـ ٣ ص ٨٩ .
(٤) ابن الحمصى ـ مصدر مخطوط سبق ذكره ص ١٢٠ .
(٥) القرمانى ـ المصدر السابق ص ٣١٥
(٦) وهى مدينة كانت فى شبه جزيرة سيناء تتخذها الجيوش نقطة ارتكاز وتموين ( ابن زنبل ـ المصدر السابق هامش ٣ ص ٤٧ ).

فمن هناك أرسل السلطان سليم مشايخ العربان يعدهم ويمنيهم ويطلب منهم إمداد جيشه بالطعام ، فقد « أرسل كتابا إلى شيخ العرب أحمد بن بقر[1] يقول له فيه : ادخل تحت طاعتنا ولك الأمان ، ولاقينا من الصالحية وصحبتك ألف أردب شعير »[2] ، فاستجاب له ابن بقر وانضم إليه هو وأولاده : عبد الدايم وبيبرس والجذامى وخاطر . فكافأهم السلطان سليم وخلع عليهم الخلع الثمينة وأقرهم على ماهم عليه من بلاد وأرزاق[3] ، ثم واصل سليم زحفه بجيشه عن طريق الصالحية إلى أن وصل إلى بلبيس دون مقاومة ، وفى تلك الأثناء أرسل طومانباى بعض أفراد الاستطلاع فعادوا إليه برأسين لجنديين عثمانيين ، وأسير من أهل حلب كان يحمل بعض الرسائل من الخائن خاير بك إلى بعض أمراء المماليك ، كما أخبره الأسير بأن الجيش العثمانى فى حالة إرهاق شديد لأن معظمهم جاءوا مشياً على أقدامهم من الشام ، كما أنهم وخيولهم عاجزون عن الحركة نتيجة نقص الإمدادات التموينية ، وعندئذ قرر طومانباى انتهاز هذه الفرصة بالهجوم المفاجىء على الجيش العثمانى الذى أنهكه السير فى الصحراء ونقص التموين ، فرفض أمراء المماليك ذلك ، ويتحسر ابن إياس المؤرخ على ضياع هذه الفرصة بقوله : « .. ولو لاقاهم من هناك كان عين الصواب ، فإن خيولهم قد بطلت من الجوع والتعب ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب ، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا إلى الخانكاه ويجدوا العليق والمأكل والمشرب ، والراحة من التعب ... »[4] .

---

(١) شيخ عربان الشرقية .

(٢) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ٩١

(٣) ابن زنبل المصدر السابق ص ص ٤٧ ، ٤٨

(٤) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ٩٢ .

لم يجد طومان باى أمامه من سبيل - إزاء رفض المماليك - سوى الأمر بحرق الشون التى فى بلبيس وماحولها إلى الخانكاه لحرمان العثمانيين مما بها من غلال[1] وبشن حرب العصابات ضد العثمانيين « فصارت فرسان الجراكسة تشن الغارة على عسكر السلطان سليم وكل من استطرفوا به أخذوا رأسه وجاءوا بها إلى طومان باى ، فصار يجزل عطاياهم »[2] ، كما قام عربان السوالمة وغيرهم بالاشتراك فى حرب العصابات ، فصاروا يهجمون على معسكر العثمانيين فيقتلون بعض جنودهم ويحضرون رءوسهم للسلطان طومان باى الذى كان يأمر بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة، فاشتعل الحماس فى النفوس ، واستطاع بعض العربان أن يحتال على الخائن إبراهيم السمرقندى[3] الذى حضر صحبة السلطان سليم ، وأن يقتله ويحضر رأسه إلى السلطان طومان باى[4] .

وفى الوقت الذى كان طومان باى يحاول رد عادية الغزاة عن مصر بشتى الطرق كانت المكيدة والخيانة تلعب دورها لو أد تلك الجهود ، فقد عمد سليم إلى حيلة لتمزيق شمل معسكر المصريين وبث الفرقة والفتنة بينهم، بعد أن ضايقته حرب العصابات ، وإجماع المصريين على مقاومته. فأحضر كاتبا عرف عنه القدرة على تقليد جميع الخطوط فضلا عن إتقانه عدة لغات، وأمره بأن يكتب عدة رسائل على لسان أمراء المماليك وابن السلطان الغورى ويحاكى فيها خطوطهم ، يعربون فيها عن ميولهم للسلطان سليم ،

---

( ١ ) المصدر السابق ح ٣ ص ٩٥

( ٢ ) ابن زنبل . المصدر السابق ص ٤٩

( ٣ ) كان من أخصاء السلطان الغورى ثم انضم بعد مقتله إلى معسكر السلطان سليم وقد سبقت الاشارة إليه

( ٤ ) ابن إياس . المصدر السابق ح ٣ ص ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦

وتحريضهم له على المجيء إلى مصر ، وأنهم سيكونون عونا له على طومان باى والأمير علان الدوادار والأمير كرتباى الوالى ، ثم أحضر رجلا من رجال خاير بك وأمره بالذهاب إلى معسكر المصريين ، وإلقاء هذه الرسائل بالقرب من خيمة السلطان طومان باى ، والانتظار حتى يرى ماسوف يحدث ثم يعود له بالخبر. وعندما وصلت هذه الرسائل إلى أيدى طومان باى عرض الأمر على الأمراء الذين أنكروا وحلفوا الإيمان المغلظة على أن هذه الرسائل لم تصدر منهم ، فحدثت فتنة بين العسكر وأوشكوا على الفتك بعضهم بالبعض ، لولا حكمة طومان باى وفطنته وحسن سياسته ، فقد قضى على الفتنة فى مهدها قائلا للأمراء : « ربما تكون هذه مكيدة من الأعادى ، كادونا بها ليفتنونا ، ولكن الله تعالى يقابل كلامنا بما يستحق ، ولكن كونوا على أهبتكم للقاء عدوكم »[1] .

ولكن إذا كانت المكيدة قد فشلت فإن الخيانة قد آتت ثمارها فى معسكر المصريين ، فعندما وصل السلطان سليم بجيشه إلى الخانكاه بدأ طومان باى فى تنظيم صفوف جيشه ، وتنسيق الأسلحة ومعدات القتال فأخرج المدافع الكبيرة من مخابئها فى الجبل ، ونصبها على حافة الخندق فى مواجهة ميدان المعركة المنتظر ، ولكن الغزالى تجلت خيانته فى تلك اللحظات الحاسمة فى تاريخ مصر ، فقد أشار عليه بدفن المدافع فى الرمال حتى لا يراها جواسيس العثمانيين فيخبرون سليما بها ، وألح فى مشورته حتى أقنع المماليك بها ، ثم أرسل خطابا إلى خاير بك يخبره بأمر المدافع ، وباستعدادات المصريين وأسلحتهم المختلفة ، وينصح العثمانيين - فى خطابه - بعدم الهجوم فى مواجهة تحصينات المصريين فى الريدانية ، ويشير عليهم بالإلتفاف من جانب الجبل حتى لا يكونوا فى مرمى أسلحة المصريين[2] ،

---

(١) ابن زنبل . المصدر السابق ص ص ٤٨ - ٤٩

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ٤٩ ، ٥٠ ، الإسحاقى - المصدر السابق ص ١٢٩

وقد استفاد العثمانيون من خيانة جان بردى الغزالى أجل الفوائد كما سنرى بعد قليل .

## ( د ) المعركة :

وفى يوم الأربعاء ٢٨ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ اقترب العثمانيون فى زحفهم من العاصمة حتى وصلوا إلى بركة الحاج[1] فأعلن نفير الحرب فى معسكر المصريين ، فاستعد الجنود والأمراء ، وأشرف طومان باى على تنظيم الجيش وتوزيع القوات والمعدات الحربية ، ويصف الإسحاقى همة طومان باى واستعداد المصريين المعركة بقوله : « فجند الجنود وعقد الألوية والبنود ، وبرزوا إلى الريدانية خارج باب النصر ، ونصبوا المدافع الكبار والأحجار وهيئوها ليطلقوها إذا أقبلت العساكر العثمانية »[2] ، ولم ينس طومان باى توفير الإمدادات التموينية لجيشه فجمع منها الكثير وكدسها خلف الجيش ، لأنه كان يظن أن الجيش العثمانى سيقابله وجها لوجه فى ظاهر الريدانية[3] من الجبل الأحمر حتى غيط المطرية ، وأن الحرب ستطول ، ولكن خاب ظنه إذ لم يكد الجيشان يتلاقيان يوم الخميس ٢٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ حتى اتضحت خطة الهجوم التى رسمها سليم مستفيدا من نصيحة الغزالى ، فقسم الجيش العثمانى إلى ثلاث فرق : فرقة كانت وجهتها المصريين بالريدانية المناورة ، وفرقة أخرى سارت تحت الجبل الأحمر والمقطم وأحاطت بهم من اليمين إلى الخلف ، وفرقة ثالثة

---

( ١ ) بركة الحاج - قرية فى شمال شرق القاهرة تقع فى جنوب الخانكة وشرق المرج

( ٢ ) الاسحاقى - المصدر السابق ص ١٢٩

( ٣ ) صحراء العباسية وعين شمس إلى بركة الحاج

سارت فى اتجاه بولاق وأحاطت بهم من الشمال[1] .

عندئذ أدرك طومان باى ، والأمير علان الدوادار والأمير كرتباى الوالى خيانة الغزالى لهم وفكروا فى قتله ولكنهم عدلوا عن ذلك خشية افتتان الجند وقت المعركة ، وتتضح جسامة الخيانة التى ارتكبها الغزالى وأثرها فى تحول نتيجة المعركة لصالح العثمانيين ، إذا علمنا أن مدفعا واحدا من مدافع المصريين لم يدفن فى الرمال طبقا لمشورة الغزالى لأن الجندى المكلف بالضرب عليه كان أخرسا ، وعند هجوم فرقة العثمانيين المواجهة للحشود المصرية أطلق الجندى طلقة واحدة من المدفع فأحدث ثغرة فى عسكر سليم، الأمر الذى نتج عنه حدوث اضطراب فى الجيش العثمانى وظنوا أن الغزالى وخاير بك قد خدعاهم ، وغضب سليم واستدعى خاير بك الذى طلب مهلة لاستيضاح الأمر وأرسل جاسوسا فعاد إليه ليطمئنه بأن المدافع كلها مدفونة فى الرمال وأن المدفع الذى انطلق كان وراءه رجل أخرس رمى به ثم هرب فاطمأن السلطان سليم[2].

وبينما كانت المعركة دائرة رحاها والخنادق المصرية تعوق تقدم العثمانيين من جهة الريدانية إذا بالسلطان طومان باى يقذف بنفسه ومعه جماعة من المخلصين له على رأسهم الأمير علان والأمير كرتباى وسط صفوف العثمانيين قاصدين صنجق السلطان سليم ، ويصف ابن زنبل هذه العملية الفدائية وهذه البطولة الخارقة بقوله : « فما زالوا فى مشوارهم وهم يطعنون بالقنطاريات[3] حتى غاصوا فى جميع عسكر الروم بجملتها ، فلله

---

(١) ابن الحمصى ـ مصدر مخطوط سبق ذكره ص ٢٠١ ، الاسحاقى المصدر السابق ص ١٢٩ ، السير وليم موير ـ مرجع سبق ذكره ص ١٧٨ ، عمر الاسكندرى وسليم حسن ـ المرجع السابق ص ١١

(٢) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ص ٥٠،٥١ .

(٣) القنطاريات : جمع قنطارية وهى آلة من آلات الحرب (ابن زنبل هامش ص ٢٧ )

درهم من فرسان لكونهم لقوا هذا الجيش العظيم بنفوسهم ... وليس الخبر كالعيان ، فما زالوا يضربون ويطعنون حتى وصـــلوا سنجق السلطان ... ، وقتلوا من حوله وأسروا وزيره سنان باشا وقتله طومان باى ظناً منه أنه هو السلطان سليم بنفسه[١] ، وقد حزن السلطان سليم عليه حزناً شديداً حتى يروى أنه قال : «أى فائدة فى مصر بلا يوسف »[٢] ، فقد كان اسمه يوسف سنان باشا .

كانت معركة الريدانية أشرس معركة دارت بين المصريين والعثمانيين منذ اتجه سليم إلى الشام ، اشترك فيها السلطانان سليم وطومان باى الذى أظهر بطولة خارقة فى الدفاع عن مصر شهد له بها المؤرخون - يقول ابن العماد « وظهر لطومان باى شجاعة قوية عرف بها وشهد له بها الفريقان وأوقع الفتك بعسكر السلطان سليم ، ولولا شدة عضده بخاير بك والغزالى ومكيدتهما ما ظفر بطومان باى ... »[٣] وكانت الخسائر فادحة من الجانبين غير أن الهزيمة كانت من نصيب المصريين الذين التف حولهم العثمانيون ووجهوا إليهم مدافعهم وبنادقهم من كل صوب ، ودخل العثمانيون القاهرة يوم الجمعة ٢٠ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ / ٢٣ يناير ١٥١٧ م فى موكب حاشد على رأسه الخليفة المتوكل على الله ، ووزراء السلطان سليم وقضاة الشرع الثلاثة : الطويل الشافعى ، والدميرى المالكى ، والفتوحى الحنبلى ، ومعهم الخونة : خاير بك ويونس العادلى وغيرهم ، وفى ذلك اليوم خطب باسم السلطان سليم على منابر مصر

---

(١) المصدر السابق ص ص ٥١ - ٥٢ ، الغزى المصدر السابق حـ١ ص ٢٠٩

(٢) ابن العماد المصدر السابق حـ٨ ص ١٤٥ ، الاسحاقى . المصدر السابق ص١٢٩

(٣) ابن العماد المصدر السابق حـ ٨ ص ١٤٥

والقاهرة ودعا له بعض الخطباء بقوله : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ملك البرين والبحرين وكاسر الجيشين[١] وسلطان العراقين[٢] وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه اللهم انصره نصراً عزيزاً وافتح له فتحاً مبيناً يامالك الدنيا والآخرة يارب العالمين »[٣] ، أما السلطان سليم فانه نزل بمعسكره الخاص بساحل بولاق والجزيرة الوسطى ( الروضة ) ولم يدخل القاهرة إلا يوم الثلاثاء ٤ من المحرم سنة ٩٢٣ هـ / ٢٧ يناير ١٥١٧ م ، فدخلها دخول الفاتحين وسلمت إليه مفاتيح القلعة ، وقد استبيحت القاهرة ثلاثة أيام لاقى خلالها الأهالى الأهوال من قتل وسلب ونهب وهتك للأعراض وغيرها من مختلف الموبقات[٤]

( هـ ) وصف ابن إياس لواقعة الريدانية :

هذه هى معركة الريدانية التى تمثل آخر حلقة من حلقات المقاومة الرسمية للغزو العثمانى ، حشد لها طومان باى - كما سبق أن رأينا - كل إمكانات مصر فقد كان - على حد تعبير ابن إياس - له همة عالية ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض مافعله السلطان طومان باى . . . لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ». ويصور لنا ابن إياس هذه الموقعة تصويرا دقيقا فى صفحات كتابه - موضحا ضراوة هذه المعركة ، وحسن استعداد المصريين لها بتنظيم مواقعهم وتحصينها وخطة الدفاع ، وعنف المقاومة المصرية وبطولة طومان باى ، وخطة العدو ، وكيف أن هزيمة

---

( ١ ) جيش الصفويين وجيش المماليك ( ٢ ) عراق العجم وعراق العرب
( ٣ ) ابن إياس - المصدر السابق ج ٣ ص ص ٩٧ ، ٩٨
( ٤ ) الاسحاقى - مصدر سبق ذكره ص ١٢٩ ، ابن إياس - المصدر السابق ج ٣ ص ص ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، السير وليم موير - المرجع السابق ص ١٧٨ ، عمر الاسكندرى وسليم حسن - المرجع السابق ١١ - ١٢

المصريين كانت غير متوقعة ، وسوف نذكر بعض فقرات مما رواه ابن إياس كمؤرخ معاصر لهذه الأحداث .

يقول ابن إياس : « ... فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وماذاك إلا أن السلطان طومان باى لما توجه إلى الريدانية ونصب بها الوطاق[1] حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع وصف هناك طوارق وضع عليها تساتير من خشب وحفر خندقا من الجبل الأحمر إلى غيط المطرية وقد تقدم القول على ذلك ، ثم إن السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف جمل وعليها زكائب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق بيض وحمر تخفق فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، أو أن الحصار يبقى مدة طويلة، فجاء الأمر بخلاف ذلك .... »

« زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله إلى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ، ونادى السلطان للعسكر بالخروج إلى قتال ابن عثمان فركب الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا وركب العسكر قاطبة حتى سدوا الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، فقتل من العثمانية مالا يحصى عددهم وقتل سنان باشا . . . وكان أكبر وزرائه ( يعنى سليما ) وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة

---

(١) الوطاق أو الأوطاق هو الخيمة والمراد الخيمات الكبيرة الخاصة بالملوك أو القواد ( ابن زنبل ـ المصدر السابق ـ هامش ص ٢٠ ) .

حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان إلى تربة الأمير يشبك الدوادار ، ثم إن العثمانية تحايوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ، ثم انقسموا فرقتين ، فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية وطرشوهم بالبندق الرصاص . . . فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر مالا يعلمه إلا الله . . . فلم تكن إلا ساعة يسيرة حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا ، وتمت عليهم الكسرة ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية ، فقتل من عسكر ابن عثمان مالا يحصى ، فلما تكاثرت عليه العسكر العثمانية ورأى العسكر قد ذهب من حوله خاف على نفسه أن يقبضوا عليه فطوى الصنجق السلطانى واختفى . . . »

«أما الفرقة العثمانية التى توجهت من تحت الجبل الأحمر فإنها نزلت على الوطاق السلطانى وعلى وطاق الأمراء والعسكر فنهبوا كل مافيها من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار . . . ثم نهبوا المكاحل التى كان نصبها السلطان هناك ، ونهبوا الطوارق والستائر الخشب والعربات التى تعب عليها السلطان وصرف عليها جملة من المال . . . ونهبوا البارود الذى كان هناك ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا . . . ثم دخلوا القاهرة بالسيف عنوة . . . »[1]

---

(١) ابن إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٩٦ - ٩٧

**( و ) والفضل ماشهدت به الأعداء :**

وهكذا سقطت العاصمة تحت أقدام الغزاة العثمانيين لا عن خذلان أو تقصير من طومان باى ، ولكن - كما سبق أن ذكرنا - بفعل الغدر والخيانة وعدم إخلاص بعض أمراء المماليك - وعلى رأسهم الغزالى - لسلطانهم الذى بذل جهودا مضنية فى سبيل حشد الحشود والاستعدادات الضخمة لمقاومة الغزاة فى غزة والريدانية ، هذا فضلا عن بطولته وجرأته وفدائيته أثناء القتال ، ولقد شهد السلطان سليم نفسه ، بذلك فيما سجله فى رسالته إلى كافل الشام وقاضى القضاة بعد واقعة الريدانية يصف فيها أحوال الجيش العثمانى منذ خروجه من الشام قاصدا مصر ، والمعارك التى خاضها هذا الجيش فى غزة والريدانية ، وفيها يعترف سليم بضخامة الاستعدادات المصرية والمجهود الحربى الذى قام به طومان باى فى غزة والريدانية لمقاومة الغزو العثمانى ، وإن كان قد حاول التهوين من شأنها ، غير أنه اعترف بالتعبئة العامة التى جرت فى مصر واشتراك العربان فى المقاومة ، كما اعترف بالاستعدادات العسكرية الضخمة والأسلحة المختلفة من بنادق ومدافع ودروع أعدها المصريون ، والتحصينات من خنادق وستائر أقاموها وزودوها بمختلف الأسلحة ، ولم يستطيع تعصبه أن يخفى حقيقة قوة المقاومة المصرية ، واستعدادات الجيش المصرى وحسن تنسيقه تحت قيادة السلطان طومان باى .

وهذه الرسالة تعد بحق أندر وثيقة سلطانية تتضمن اعترافا صريحا من السلطان سليم بقوة وعظم وضخامة استعدادات المصريين لمقاومة الغزو العثمانى ، وقد حفظ لنا هذه الوثيقة المؤرخ المعاصر ابن الحمصى

---

(١) مؤرخ شامى ، كان إماما للمسجد الأموى بدمشق إبان الغزو الغزو العثمانى للشام ومصر.

فأورد هذه الرسالة فى مخطوطته «حوادث الزمان وانباؤه ووفيات الأعيان وابناؤه» ج ٢ . وإن كان للأسف لم يأت على نهايتها حيث نراها مبتورة حينما بدأت الرسالة تصف التحام الجيشين فى مرقعة الريدانية ، وتعميما للفائدة نرى ذكر هذه الوثيقة كما ذكرها ابن الحمصى فى مخطوطته حيث يقول :

« سنة ثلاث وعشرين وتسع مائة هـ ، استهلت والناس فى اضطراب شديد وأمور الناس غير مستقيمة بواسطة انقطاع الطرقات وكثرة القتلى، وورد الخبر إلى دمشق بأن السلطان سليم شاه ابن عثمان وصل إلى مصر فى تاسع عشرين الحجة . . . وفيه كان أول القتال بينه وبين عسكر مصر كما سيأتى بيانه ، فلما كان يوم الجمعة سادس شهر صفر من السنة المذكورة وصل قصاد السلطان سليم شاه ابن عثمان إلى دمشق وعلى يدهم مراسيم السلطان بالتركى ثم عربت ومن مضمونها : الحمد لله ، قدوة الأمراء الكرام عمدة الكبرا الفخام ذو القدر والاحترام كافل مدينة الشام دام عزه، وأقضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين معدن الفضل واليقين حجة الحق على الخلق أجمعين مولانا قاضى القضاة بالشام أبدت فضائله ، مرسومنا هذا يوضح لعلمهما الكريم أننا توكلنا على الله سبحانه وتعالى وتوسلنا بسيد الكائنات محمد ﷺ وتوجهنا بعساكرنا وصناجقنا وأعلامنا وجيوشنا وخيولنا السابقات الصافنات وقسينا الغايبات ورجالنا المرصدين لصيد أعدائنا مع هداية الله الله تعالى من الشام مع السعد والظفر إلى جهة مصر فوجدنا طومان باى الذى تولى سلطنة مصر قد أقام جان بردى الغزالى كافلا للشام وجهزه إلى غزة وصحبته فرقة من العسكر المصرى ، وكان قد تقدمنا قدوة الوزراء العظام وعمدة الكبرا الفخام الغازى فى سبيل الله المجاهد لوجه الله الوزير الأعظم سنان باشا إلى جهة غزة فوقع بهم والتحم بينهم القتال العظيم فبعون الله تعالى وسعد ذاتنا الشريفة حصل له النصر والظفر وقتل منهم من

قتل وأسر منهم من أسر، ومن سلم من سيفه فر منهزما صحبة الغزالى المذكور إلى مدينة مصر ».

« ثم إن ركابنا الشريف جد فى السير بالسعد والإقبال بعساكرنا وجنودنا واجتمع بنا سنان باشا المشار إليه وصرنا نرحل من مرحلة إلى مرحلة مثل السهام فلما وصل إليهم خبر توجه ركابنا الشريف على هذا الوجه أرادوا أن يتداركوا بقاء نفوسهم وأرواحهم فجمعوا عساكرهم السيفية والجلبان ومماليك الأمراء والعربان نحو الثلاثين ألفا وجمعوا ما فى القلعة المصرية وبيوت الأمراء وثغر الإسكندرية وساير البلاد والقلاع من المكاحل الكفيات والبندقيات والسلاح ، وحفروا خندقا فى الريدانية من بحر النيل إلى الجبل وجمعوا أخشابا عملوها تساتير على الخندق ، وأحضروا رماة من الأفرنج وغيرهم وساير آلات الحرب وهيئوها للقائنا ، ووصل ركابنا الشريف بعساكرنا المنصورة إلى الريدانية فى يوم الخميس التاسع والعشرين من الحجة الحرام سنة اثنتين وعشرين وقت الغداء فوجدناهم قد لبسوا السلاح وتكملوا العدد وتقلدوا العدد وهم غارقون فى الدروع والزرد وأرادوا مقابلة عساكرنا المنصورة التى هى أعداد الرمال وأمثال الجبال فلما وقف الصفان ماج عسكرنا كموج بحر عمان وبقى يغـــلى ويضطرب فرتبنا وزيرنا الأعظم سنان باشا فى ميمنة العسكر ودستورنا المكرم ومشيرنا المفخم نمر وهزبر الهيجا يونس باشا ..»[1] ( انتهت الرسالة ) .

---

(١) ابن الحمصى ـ حوادث الزمان وأبناؤه، ووفيات الاعيان وأبناؤه ـ مصدر مخطوط سبق ذكره حـ ٣ ص ص ١١٩ ، ١٢٠

# الفصل الرابع

## المقاومة غير الرسمية ( الشعبية )

بهزيمة الريدانية ودخول العثمانيين القاهرة سقطت المقاومة الرسمية ، وبدأت عمليات السلب والنهب ، فاستولى العثمانيون على كل ماوصلت إليه أيديهم ، وهددوا الناس بالموت إن لم يدفعوا لهم فداء كبيرا ، واستمرت عملية مطاردة المماليك فى كل مكان ، حيث ذبحوا بدون رحمة وعلقت رؤوسهم حول ميدان القتال ، ولم ينج سكان العاصمة من هذه المذبحة الرهيبة « حتى صارت الجثث مرمية من سبيل علان إلى تربة الأشرف قايتباى لجافت منهم الأرض » . وقد حاول الخليفة عبثا وقف هذه الفظائع الوحشية التى استمرت حتى دخول سليم القاهرة يوم الثلاثاء ٤ من المحرم ٩٢٣ هـ ، وقد حاول سليم اجتذاب الأمراء المماليك إليه فخلع على بعضهم الخلع الثمينة وأقرهم فى وظائفهم ، ولما حضر إليه المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى قربه إليه وألبسه قفطاناً من مخمل أخضر مذهب وألبسه عمامة عثمانية وأعطاه ورقة بالأمان له على نفسه وسمح له بأن يسكن فى مدرسة أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين ، كما نادى سليم فى القاهرة بالأمان والاطمئنان (1) وظن أن الأمور قد استقرت له .

### واقعة الصليبية :

على أن المصريين لم يتركوا بلادهم لقمة سائغة للعثمانيين ، ولم يتركوا العدو يهنأ بنصره ففى ليلة الأربعاء ( ٥ من المحرم سنة ٩٢٣ هـ / ٢٨ يناير ١٥١٧ م ) انفجرت المقاومة الشعبية فى القاهرة يقودها السلطان طومان باى

---

( ١ ) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ص ٩٩ ، ١٠٠

الذى كان قد ذهب – بعد واقعة الريدانية – إلى ناحية طرا[1] واجتمع حوله نحو سبعة آلاف فارس أجمعوا أمرهم على المقاومة حتى الموت[2] فهجموا على معسكر السلطان سليم، فاختل نظام عسكره واختلط الحابل بالنابل، وصارت المعارك فى شوارع القاهرة، اشترك فيها إلى جانب طومان باى والمماليك جماهير غفيرة من الشعب المصرى الذين صاروا يرجون المعسكر العثمانى بالمقاليع وفيها الحجارة[3] كما اشتركت النساء المصريات فى هذه الملحمة الشعبية الرائعة، فصارت نساء مصر ترميهم بالأحجار والحدايد والمثقلات من الشبابيك إنتقاما، من العثمانيين الذين انتهكوا حرماتهن[4].

أما المماليك فقد أعملوا السيف فى العثمانيين وقتلوا منهم نحو العشرة آلاف أو أكثر فى ليلة واحدة[5]، وفى صباح الأربعاء عندما شعر أمراء المماليك الذين اختفوا بظهور طومان باى وعودته للكفاح حرجو وانضموا إليه، فجاء الأمير علان بقواته من الناصرية واشترك فى القتال، كما هاجم العربان مخيمات العثمانيين بالريدانية، ونجحت المقاومة المصرية فى زحزحة العثمانيين عن مواقعهم والسيطرة على مناطق واسعة من العاصمة، ومطاردة العثمانيين فى البيوت والحارات وقتل الآلاف منهم، ويصف ابن إياس ضراوة هذه المقاومة بقوله: «وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر هناك واقعة تشيب منها النواصى فلكوا منهم من

---

(١) طراهى بلدة طرة الواقعة على خط سكة حديد حلوان جنوب القاهرة.

(٢) ابن زنبل – المصدر السابق ص ص ٥٣، ٥٥

(٣) ابن اياس المصدر السابق ج٣ ص ١٠٢

(٤) إبراهيم بك حليم – التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ط ١، القاهرة ١٩٠٥ م ص ٨٢

(٥) ابن زنبل – المصدر السابق ص ٥٥

رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر إلى ما بعد المغرب . . . ثم إن المماليك الجراكسة صاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانية . . . فصاروا يدورون فى الحارات وكل من يظفرون به من العثمانية يقطعون رأســه ويحضرونها بين يدى السلطان طومان باى ، وصار الطالب مطلوبا . . . (١) .

وفى يوم الخميس ( ٦ من المحرم سنة ٩٢٣ هـ / ٢٩ يناير ١٥١٧ م ) اشتد القتال بين الفريقين ، ونادى السلطان طومان باى فى الناصرية وقناطر السباع لعامة الشعب بأن كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ويقطع رأسه ويحضرها بين يدى السلطان ، فارتفعت الروح المعنوية لدى المصريين وأخذوا يقتحمون المنازل بحثاً عن العثمانيين ومن ظفروا به ذبحوه فوراً ، وحمى وطيس القتال بين الفريقين من بولاق إلى الناصرية ، غير أن العثمانيين استطاعوا أن يجمعوا شملهم وأن يكتلوا جهودهم بعد أن تقاطرت النجدات الكثيفة إليهم ، فانقلب ميزان القوى لصالحهم ، واستطاعوا أن يجلوا قوات المقاومة من عدة مناطق من بولاق إلى قناطر السباع ، فتحصن طومان باى بحى الصليبة ، واتخذ من جامع شيخون مركزاً لقيادة المقاومة وشرع فى حفر الخنادق وإقامة التحصينات حول المنطقة ، فحفر عدة خنادق عند رأس الصليبة وقناطر السباع ورأس الرميلة وجامع ابن طولون وحدرة البقر ووزع قواته للدفاع فى تلك الجهات (٢) .

غير أن تلك الجهود الرائعة التى بذلها طومان باى لم تجد فتيلا ، فقد

---

(١) إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ١٠٢

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، د الشناوى - المرجع السابق ص ص ٤٨٦ - ٥٨٧ .

تكاثر العثمانيون ، وحاصروا حى الصليبة من كل جانب ، وهم مزودون بالبندق الرصاص والمدفعية ، فتسلل المماليك ، بعد أن كانوا غالبين مستبشرين بالنصر . . . وقالوا : من يقابل هذه النار المهلكة »[١] وبقى طومان باى فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض المماليك السلطانية وبعض الأمراء المخلصين مثل شادى بك الأعور وآخرين ، يقاتل ويصول ويجول فى ميدان الحرب يواجه جموع العثمانيين الكثيفة بأسلحتهم الحديثة بهذا النفر القليل من أتباعه ولكن متى تنفع الشجاعة أمام الكثرة الغالبة فاضطر طومان باى إلى الإنسحاب إلى بركة الحبش ثم عبر النيل من ساحل طرة إلى الضفة الغربية بالجيزة لينظم فلول جيشه المنسحب وليستعد للمقاومة من جديد[٢] ويصف ابن زنبل صمود طومان باى وشجاعته بعد انسحاب قواته بقوله : « وأما طومان باى فإنه لم يهرب وحطم عليهم حطمة الأسد الغضبان وقتل فيهم قتلا حتى كل ساعده ، ولكن ماذا يفعل الواحد فى مائتى ألف أو أكثر »[٣].

ومما هو جدير بالذكر أن واقعة الصليبة كانت من أروع معارك المقاومة المصرية غير الرسمية للغزو العثمانى فقد أتيح فيها للمصريين أن يقاتلوا العثمانيين دون تدخل عامل الخيانة ومن ثم فقد استمرت أربعة أيام بلياليها ( من ليلة الأربعاء ٥ من المحرم إلى صباح السبت ٨ من المحرم ٩٢٣ هـ ) حققت فيها المقاومة انتصارات باهرة على العثمانيين وأنزلت بهم الخسائر الفادحة فى الأرواح ، الأمر الذى جعل سكان العاصمة يستبشرون

---

( ١ ) ابن زنبل ص ص ٥٥ ، ٥٦
( ٢ ) ابن إياس ـ المصدر السابق ـ ج ٢ ص ١٠٣ ، السعد وليم وير ـ المرجع السابق ص ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، عمر الاسكندرى وسليم حسن ـ المرجع السابق ص ٢ ؟
( ٣ ) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ٥٦

خيراً ، حتى أنه عند ما جاء يوم الجمعة ٧ من المحرم أغفل خطباء المساجد بالقاهرة فى خطبة الجمعة ذكر إسم السلطان سليم وذكروا اسم السلطان طومان باى ودعوا له على خلاف الجمعة السابقة فقد كان الدعاء للسلطان سليم ، وكان على رأس هؤلاء الخطباء الشيخ يحيى بن العداس[1] خطيب جامع شيخون ، الذى وقف بجانب السلطان طومان باى وساند أثناء المقاومة فكان يخطب باسمه على المنبر غير مكترث بما سوف يلحقه من أذى العثمانيين فى حالة اندحار المقاومة المصرية[2] وقد قبض عليه العثمانيون بعد فشل المقاومة ، وهم السلطان سليم بضرب عنقه لولا شفاعة الخليفة فيه[3] .

وقد كان من نتائج اندحار المقاومة فى القاهرة أن أعاد العثمانيون سيطرتهم على العاصمة واستباحوها مرة أخرى فأطلقوا لسيوفهم العنان فى القتل فكانت مجازر بشرية يصفها ابن إياس « بالمصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان » حيث « قتلوا جماعة كثيرة من العوام وفيها صغار وشيوخ لاذنب لهم . . . وحطوا غيظهم فى العبيد والغلمان والعوام من الزعر وغيرهم ، ولعبوا فيهم بالسيف وراح الصالح بالطالح وربما

---

(١) هو : يحى الشيخ شرف الدين بن العداس إمام جامع شيخون بالقاهرة وخطيبه وناظره - كان ذا نشاط وبساط وسماط وبر لاصحابه وقضاء لحوائجهم بحيث أدى به ذلك آخرا إلى تحمل شىء من الدين وتوفى سنة ٩٣١ هـ ( الغزى - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، جـ١ ص ٣١٤ )

(٢) وقد سبق لهذا الشيخ تعضيد السلطان العادل طومان باى إبان النزاع الذى نشب بينه وبين السلطان الاشرف جان بلاط حول السلطنة فى مصر سنة ٩٠٦ هـ ( انظر ابن إياس - المصدر السابق جـ٣ ص ٣٨٤ )

(٣) ابن إياس - المصدر السابق جـ٣ ص ص ١٠٣ ، ١٠٤ : وانظر السير وليم موير - المرجع السابق ص ١٧٩ ، عمر الاسكندرى وسليم حسن - المرجع السابق ص ١٢

عوقب من لاذنب له فصارت جثثهم مرمية فى الطرقات من باب زويلة إلى الرميلة ، ومن الرميلة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة ، فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة ... فوق العشرة آلاف إنسان فى مدة هذه الأربعة أيام ، ولولا لطف الله لفنى أهل مصر قاطبة بالسيف »[١] ولم يراعوا حرمة المساجد فهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالناصرية ، ونهبوا مافيها من قناديل وحصر ، وأحرقوا البيوت التى حولها كما دخلوا مسجد السيدة نفيسة وداسوا قبرها ونهبوا محتويات المسجد ، كما لم يسلم الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرها من الجوامع الكبار والمدارس والزوايا من عبث الجنود العثمانيين ، بحجة البحث عن المماليك ، أما جامع شيخون الذى كان مركزا لقيادة المقاومة ، فإن العثمانيين اشعلوا فيه النيران فاحترق سقف إيوانه الكبير ، والقبة التى كانت فوقه ، كما أحرقوا المنازل المجاورة له بعد أن فر أهلها منها ، كما قاموا بعملية تمشيط لمنازل القاهرة بحثا عن المماليك فقبضوا على حوالى ثمانمائة مملوك ، وضربوا أعناقهم ، ثم تحايل سليم بأن أعلن الأمان للمماليك فظهر نحو أربعمائة منهم فغدر بهم وضرب أعناقهم ، وكان من بينهم الأمير كرتباى الوالى الذى أصيب فى فخذه فاختبأ عند أحد أصدقائه المباشرين ثم وشى به إلى السلطان سليم فأعطاه الأمان ووعده خيرا ثم غدر به وقتله ثم اودع سجن القلعة بعض من ظهر منهم بعد ذلك[٢] .

### موقف جان بردى الغزالى

أما الأمير المملوكى الخائن جان بردى الغزالى فهناك خلاف واضح

---

(١) ابن إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ص ١٠٢ ، ١٠٤

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن زنبل ص ٥٦ - ٦٢

بين المؤرخين حول موقفه فابن إياس يروى أن الغزالى كان قد فر بعد هزيمة الريدانية ، وهرب إلى غزة ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ، ثم جاء إلى القاهرة يطلب الأمان من السلطان سليم بعد فشل المقاومة المصرية فى الصليبة ، فأعطاه سليم الأمان وأحسن استقباله وعهد إليه بقيادة حملة صغيرة لمطاردة عربان الشرقية[1] ، وهذه الرواية تفيد أن الغزالى ظل مخلصا للسلطان طومان باى حتى معركة الريدانية ، ثم انضم إلى العثمانيين عقب انتصارهم على المماليك فى الصليبة ، ثم نجد ابن إياس نفسه يروى فى ( ص ١٠٧ ) « وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى الباطن من أيام الغورى وكان سببا لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب حلب وانهزما قبل العسكر وأشاعا الكسرة على عسكر مصر » ، وهذا يفيد خيانة الغزالى منذ مرج دابق وأنه سار فى شوط الخيانة سرا حتى موقعة الريدانية ، الأمر الذى يؤيد رواية ابن زنبل التى تؤكد خيانة الغزالى منذ مرج دابق وتماديه فى أسلوب الخيانة فى موقعة غزة، ثم أثناء الاستعداد لموقعة الريدانية حيث انكشف أمره أثناء المعركة ، وقد هم طومان باى بقتله ولكنه تراجع خوف الفتنة أثناء المعركة ثم هروب الغزالى بعد الريدانية ولجوئه إلى الأمير أحمد بن بقر ينتظر ما سوف تسفر عنه الأحداث ، وعندما نشطت المقاومة بالقاهرة رجع بعض الأمراء - الذين كانوا صحبة الغزالى للانضمام إلى طومان باى أثناء كفاحه فخاف الغزالى أن يعرف طومان باى مكانه فسارع بالذهاب إلى معسكر سليم وطلب الأمان فرحب به وخلع عليه خلعة ثمينة[2] كما سبق أن ذكرنا ، وهذا الرأى هو ما يؤيده معظم المؤرخين القريبى العهد من أحداث الغزو العثمانى[3] وهو ما نميل إليه

---

( ١ ) ابن إياس المصدر السابق جـ٣ ص ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٠

( ٢ ) ابن زنبل - ص ص ٨٢ - ٨٦

( ٣ ) انظر الغزى - المصدر السابق جـ١ ص ١٦٨ ، ابن العماد الحنبلى - المصدر السابق جـ ٨ ص ص ٢١٥ ، الاسحاقى - المصدر السابق ص ١٢٨

لاتساقه مع الأحداث ، خلافا لما يراه السير وليم موير[1].

## واقعة أطفيح

بعد هزيمة الصليبية أخذ طومان باى يعد العدة لجولة جديدة فاجتمع حوله نحو ألفين من فرسان المماليك وسبعة آلاف من العربان بالقرب من أطفيح[2] وعقدوا العزم على الإنقضاض على العثمانيين غير أن الخيانة ذرت قرنها من جديد ، فقد إنحاز إلى سليم أحد أمراء المماليك ويدعى جانم السيفى كاشف الفيوم وأخبر سليماً بخطة طومان باى ، وعرض عليه القيام بمهمة القضاء عليه فأمده سليم بخمسة عشر ألفاً من الجنود وخمسة آلاف رام بالبندق وخمسين ضربزانات[3] وعهد إليه بمطاردة طومان باى والقضاء عليه ، وسارت هذه الحملة على ظهر المراكب فى النيل ، وعندما أبصروا حشود المصريين بقيادة طومان باى نزلت القوات إلى البر وأطلقت المدفعية ، ثم التحم الجيشان فى معركة رهيبة حتى جاء الليل فتوقف القتال وفى الصباح انتقلت المعركة إلى الشاطىء الغربى للنيل ، أما طومان باى فقد قسم قواته إلى قسمين أحدهما بقيادته لمواجهة العدو ، والآخر بقيادة الأمير شادى بك الأعور ينتظر بعيداً حتى تحتدم المعركة ثم يقوم بالهجوم على القوات العثمانية فتقع بين شقى الرحى .

وفى جنوبى الجيزة تلاقى الجيشان فى معركة رهيبة ، استطاع خلالها الأمير شادى بك - بعد أن استولى على جميع مراكب العثمانيين فى النيل

---

(١) المرجع السابق هامش ص ١٧٩

(٢) بلدة من أعمال مركز الصف بمحافظة الجيزة وكانت من البلاد الهامة ذات التاريخ

(٣) أى مدافع

عدا مركبين فرا منه - أن يطوق الجنود العثمانيين من الخلف وأن يحصرهم بينه وبين طومان باى ، وأن يبيدوهم عن آخرهم ، بحيث لم ينج منهم سوى جانم السيفى ، وقائد الانكشارية إياس أغا وأبو حمزة أحد أمراء المماليك الخائنين الذين إنحازوا إلى سليم ، فقد فر ثلاثتهم إلى أن لحقوا بالمركبين الذين نجوا من الأسر وركبوا فيهما لينقلوا إلى سليم أخبار هذه الهزيمة المنكرة [1].

أفقدت هذه الهزيمة سليما صوابه الأمر الذى جعلته يدرك شدة المقاومة وأن الأمر ليس سهلا ، فصب جام غضبه على خاير بك الذى زين له الزحف على مصر ، وهدده بالقتل قائلا له : « قد غررت بنا وأدخلتنا فى بلاد هؤلاء ، ولا أحد يسهل عليه ترك بلاده ... كنت أحسب أنهم زمرة قليلة وشرذمة ذليلة ... فكيف بلم العرب والجراكسة ويعارك مع عسكرى ... أنت أغررتنى وطمعتنى فى أخذ هذا الاقليم ، فانظر كيف تصنع ، ودبر نفسك كيف تعرف وإلا فهيا برأسك » [2] ، كما جعلت هذه الهزيمة سليماً يفكر جدياً فى مهادنة طومان باى والانسحاب من مصر مقابل اعترافه بالسيادة العثمانية ، وقد أفصح سليم عن هذه الرغبة عند ما جمع وزراءه ومستشاريه للتشاور فى الأمر حيث قال لهم : « إن قلبى حس من الأول أن جانما ليس هو كفؤاً لطومان باى ... وأنا أريد أن أرسل له كتاباً بالأمان مع قاصد عاقل يرد الجواب فلعل الله أن يهديه ونبقيه على بلاده ، واخبره أنى رضيت منه بالاسم فقط ... ويجعل الخطبة والسكة باسمى وأعطى له مصر إلى أن يموت » [3] .

---

(١) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩

(٢) المصدر السابق ص ص ٦٩ ، ٧٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٢

**مساعى الصلح بين الطرفين :**

كانت واقعة أطفيح وهزيمة القوات العثمانية لها أثرها الواضح فى جنوح السلطان سليم إلى المصالحة مع طومان باى ، الأمر الذى جعله يفصح عن تلك الرغبة أمام وزرائه ومستشاريه ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن طومان باى قد ذهب إلى البهنسا بالصعيد واتخذها مركزاً لتجميع القوات للدخول فى معركة فاصلة مع العثمانيين ، وقد بدأها بالفعل بفرض الحصار الاقتصادى على العاصمة « فمنع المراكب من الدخول إلى مصر بالغلال فبموجب ذلك وقعت التشحيطة بمصر »[1] ، وتعرض الجيش العثمانى لخطر المجاعة ، كما نجح طومان باى فى حشد الحشود وجلب الأسلحة اللازمة من كل مكان « فقويت شوكته والتف عليه جماعة كثيرة من العربان واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الكثير ... ووصل إليه من ثغر الإسكندرية زردخاناة ما بين نشاب وقسى وبارود »[2] .

إذا وضعنا هذه الأمور فى الاعتبار عند تقويمنا للموقف ، أدركنا أنه كان فى صالح طومان باى ، وأن عرض الصلح كان من جانب السلطان سليم ، وهذه النتيجة تتفق مع رواية ابن زنبل التى تفيد أن السلطان العثمانى شكل وفدا أرسله إلى طومان باى يعرض عليه الصلح مقابل الاعتراف بالسيادة العثمانية[3] .

أما رواية ابن إياس فتفيد أن طومان باى كان هو البادىء بطلب الصلح فقد أرسل كتابا إلى السلطان سليم يعرض عليه الصلح بنفس

---

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق ج٣ ص ١٠٨ .
(٢) المصدر السابق ج٣ ص ١٠٨
(٣) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ص ٧٢ - ٧٣

الشروط التي سبق للسلطان سليم أن عرضها قبل زحفه إلى مصر وهي سك العملة والخطبة باسم السلطان سليم على منابر مصر ودفع الجزية السنوية التي يتفق عليها ، وأن يكون طومان باى نائبا عنه فى مصر ، ولكننا نلاحظ بجانب ذلك أن الخطاب يتضمن اعتزاز السلطان طومان باى بقوته ، وأنه ماعرض الصلح إلا حقنا لدماء المسلمين ، هذا فضلا عن شروط اشترطها لإتمام هذا الصلح ، وتهديد صريح بأن عرض الصلح لم يكن عن ضعف أو عجز فإن لديه من القوات ما يكفل له النصر ، يقول طومان باى فى كتابه : « إن كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك وأكون أنا نائبا عنك بمصر وأحمل إليك خراج مصر حسبما يقع الإتفاق عليه بيننا . . . فارحل عن مصر أنت وعسكرك إلى الصالحية وصن دماء المسلمين بيننا ولا تدخل فى خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وإن كنت ماترضى بذلك أخرج ولا قينى فى بر الجيزة ويعطى الله النصر لمن يشاء منا . . . ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز فإن معى ثلاثين أميرا ما بين مقدمى ألوف وأربعينات وعشراوات ومعى من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا وما أنا بعاجز عن قتالك ولكن الصلح لصون دماء المسلمين (١) » .

استجاب سليم لعرض الصلح وذلك لما رأى من شدة المقاومة المصرية ، وعقد مجلسا ضم إلى جانب الوزراء والمستشارين العثمانيين ـ الخليفة العباسى والقضاة الأربعة لدراسة الموقف ، فاتفق الرأى على تشكيل وفد المفاوضات من الخليفة العباسى والقضاة الأربعة ومندوب عثمانى وبعض الأعيان والجنود العثمانيين ، ولكن الخليفة اعتذر عن القيام بهذه المهمة وعين نائبا بدلا عنه ، فلما وصل الوفد إلى السلطان طومان باى بجهة

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق ج٣ ص ١٠٩

البهنسا بأسيوط وعرضوا عليه شروط الصلح التى أقرها سليم ووقع عليها بخطه، أظهر طومان باى سروره ورغبته فى قبولها . ولكن أمراءه الذين لم يثقوا بوعود السلطان سليم وعلى رأسهم الأمير شادى بك الأعور غلبوه على رأيه وذبحوا أعضاء الوفد العثمانى وأحد القضاة الأربعة[١] . كما قتل قاضى البهنسا ، فتوقفت المفاوضات وفر نائب الخليفة ومعه بقية القضاة بعد أن سلبهم المماليك أمتعتهم ، عندئذ أيقن طومان باى بأن الحرب قائمة لا محالة فزحف بقواته لملاقاة العثمانيين فوصل إلى « ترسة » على مشارف الجيزة فى ٢٨ صفر ٩٢٣ هـ[٢] ، وهذه هى المرة الثانية التى يرتكب فيها أمراء المماليك حماقات وقفت حائلا بين السلطان طومان باى وأمل الصلح والسلام .

بلغت أنباء هذه المذبحة السلطان سليم فاشتاط غضبا وعول على الإنتقام من المماليك شر انتقام ، فنقل معسكره إلى بركة الحبش استعدادا للقاء طومان باى ، ثم أمر بإحضار أمراء المماليك الذين كان قد احتجزهم فى سجن القلعة ، وكان عددهم حوالى أربعة وخمسون أميرا فضرب أعناقهم جميعا ، وصارت أجسادهم مرمية على الأرض تنهشهم الكلاب بالنهار والضباع والذئاب بالليل، وصارت المرأة من نساء الأمراء المقدمين تبرطل

---

(١) وهو قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة ، وسبب قتله أن أخاه أبا بكر - وكان قد ذهب مع أخيه صحبة الوفد - كان قد أرشد عن أحد المماليك المختفين فى القاهرة فقتله العثمانيون ، فلما رآه أخو ذلك المملوك ضرب عنقه فتحمس له أخوة محمود فضرب عنقه أيضا ( ابن إياس المصدر السابق ، جـ٣ ص ١١٣ )

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص٧٣ ، ابن إياس - المصدر السابق ، جـ٣ ص ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ وانظر السهروردى - المرجع السابق ص ص ١٨٩ - ١٩٠ .

المشاعلية[1] بمال لمصورة حتى يمكنها من نقل جثة زوجها . . . فتغسله وتكفنه وتدفنه ... » ، كما لم تسلم زوجات هؤلاء الأمراء المقتولين من انتقام سليم فقد قبض عليهن وأودعهن السجن إلى أن يدفعن الغرامة المالية التي فرضها عليهن[2] .

## مقدمات واقعة وردان

### (ا) محاولة سليم العبور إلى الجيزة وفشلها :

علم سليم بوصول قوات طومان باي إلى الجيزة فأراد العبور ولكنه وجد صعوبة كبرى في ذلك فاضطر لبناء قنطرة من المراكب في عرض النيل عند طره ومصر القديمة[3] وبدأ العثمانيون في العبور إلى الشاطئ الغربي للنيل ، فوجدها طومان فرصة سانحة الهجوم عليهم أثناء عبورهم وبالفعل داهمت قواته المجموعة الأولى التي عبرت وقضت عليها حين عبرت المجموعة الثانية ، فارتج عسكر السلطان سليم وتشتت أمرهم ، فمنهم من قتل ومنهم من انقلبت بهم المراكب بما فيها فحصل للسلطان ( سليم ) كرب عظيم ، وعدل عن خطة العبور إلى الجيزة ، وأمر جنوده بإطلاق المدافع على المصريين المحتشدين على الشاطئ الغربي ، وفي هذه الأثناء تدخلت عرب غزالة - وكانوا موتورين من السلطان طومان باي منذ كان دوادارا أيام السلطان الغوري وقمع فتنتهم أكثر من مرة - لصالح العثمانيين وعقدوا

---

(١) المشاعلية هم المكلفون بتنفيذ أحكام الوالي ، وكان عملهم في الأصل السير أمام الوالي بالمشاعل

(٢) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ص ١١١ ، ١١٢ ، ابن زنبل ، المصدر السابق ص ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٣) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٠ ، انظر السيد رجب حراز ، المرجع السابق ص ١٨٠

طومان باى بالانتقام إن لم يكف عن القتال[١].

تراجع طومان باى بقواته داخل محافظة الجيزة لجمع المزيد من الاتباع والأنصار استعداد للمعركة الفاصلة بينه وبين سليم ، فذهب إلى دهشور[٢] ونادى بالكفاح من أجل تخليص البلاد من الغزاة ، فاجتمع لهم عالم عظيم من عرب وفلاحين وغيرهم ، فقد ثار عربان أطفيح لنصرة طومان باى ، وشقوا عصا الطاعة على سليم الذى أرسل لهم حملة بقيادة الغزالى لقمع ثورتهم ، كما هبت عربان بنى حرام لنصرة طومان باى ، فصاروا يقتلون كل من صادفهم من العثمانيين ، فأحدثوا الاضطراب والفزع فى صفوفهم ، ثم عبروا النيل إلى الشاطىء الغربى للانضمام إلى قوات طومان باى الذى قوى مركزه العسكرى وقسم قواته إلى قسمين : قسم تحت قيادته ، وقسم آخر بقيادة الأمير شادى بك الأعور الذى جعله نائبا له ، وعهد إليه بمهمة الاصطدام بالعثمانيين حينما تواتيه الفرصة[٣] .

(ب) السلطان سليم يعرض الصلح :

أما السلطان سليم فقد رأى أن الأمور تنتقل من سيء إلى أسوأ خصوصا بعد ثورات العربان فى كل مكان ، وانضمام معظمهم إلى قوات المقاومة بقيادة طومان باى ، هذا فضلا عن طول غيبته عن بلاده وخشيته انتهاز الممالك النصرانية فى أوربا هذه الفرصة فيكيدون له ، فتزاحمت عليه الهواجس والظنون وسئم النزاع ، وندم على دخوله مصر وهم أن يبطش بخاير بك الذى زين له ذلك ، فعقد مجلسا حربيا ضم وزراءه ومستشاريه ، شرح لهم فيه سوء الحالة والموقف المضطرب نتيجة صمود

---

( ١ ) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ٧٥ ، ٧٦
( ٢ ) دهشور - قرية قديمة من قرى مركز الجيزة
( ٣ ) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ٨١ ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧

المقاومة المصرية وخاطبهم قائلا : «ماذا تقولون فى هذه الفئة القليلة ؟ كلما أقول إن أمورهم هانت فما أراها إلا تزيد فى كل يوم ، وقد حصل لنا منهم غاية الضرر» فاستقر الرأى على إرسال رسول إلى طومان باى لطلب الصلح ، وأجمعت الآراء على أن يكون ذلك الرسول هو الأمير خشقدم[1] فسار خشقدم على رأس وفد لمقابلة السلطان طومان باى ومفاوضته فى أمر الصلح وشروطه ، وعندما وصل إلى دهشور ، تقابل مع الأمير شادى بك فى عسكره ، فدار حوار ومناقشة حادة بين الأميرين ، أغلظ أثناءها الأمير شادى بك على الأمير خشقدم القول واتهمه بالخيانة والجبن ، وبدلا من الاتفاق والتفاهم نشبت معركة بينهما جرح أثناءها الأمير خشقدم جرحا بالغا فى رأسه ففر هاربا وتبعه اتباعه الذين طاردهم الأمير شادى بك وقتل منهم الكثير[2] ، وللمرة الثالثة تقف رعونة أمراء المماليك حائلا دون اتمام الصلح بين سليم وطومان باى .

---

(١) كان الأمير خشقدم من مماليك السلطان الغورى وقد رقاه فى المناصب حتى وصل إلى منصب شادية الشون : «كان خشقدم متزوجا من ابنة الأمير جانى بك ناظر ديوان المفرد ، فلما قبض الغورى على جانى بك لسوء تصرفه ، أمر خشقدم أن يطلق ابنة جانى بك قهرا وكان له منها أولاد ، كما ألزمه الغورى بدفع الأموال المتأخرة على صهره جانى بك فلم يجد خشقدم مفرا من الهرب ، وفى ربيع الأول سنة ٩٢١ هـ هرب خشقدم على ظهر مركب إلى السلطان سليم العثمانى وأقام عنده وصار من أخصائه ، وقد أطلع خشقدم السلطان سليم على أحوال مصر الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، وما فيها من مظالم ، وزين له الزحف على مصر ، وجاء خشقدم صحبة السلطان سليم عندما جاء إلى مصر ( ابن إياس ، المصدر السابق ص ص ٩٦٥ ، ٩٧٨ مجلد واحد ، جـ ٣ ص ٩٨) .

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

## ح — عبور سليم وموقعة الجيزة :

كان من نتيجة فشل هذه المفاوضات أن غضب السلطان سليم غضباً شديداً على خاير بك مرة أخرى وقال له : « إنى أريد الرجوع إلى دار سلطنتى لأن الأعادى فى حوالى مملكتى ، وقد قرب الشتاء واشتد الغلاء ، وأترك هذا الخراب لأهله » ، فهدأ خاير بك من غضبه وطمأنه بأن دولة المماليك زائلة لا محالة ، وأن المسألة مسألة وقت فقط ، كما أثار فيه كبرياء الملوك بقوله له : « إن فعلت ذلك سقطت من أعين الملوك ويقولون هرب من الجراكسة » ، عندئذ أمر سليم بقطع رقبة كل من يروح من المماليك ، وبدأ يستعد لمواصلة القتال فحشد من القوات أربعين ألفاً من الفرسان والمشاة فضلا عن الأتباع وأمر ببناء جسر من المراكب فى النيل ، وعبر سليم على رأس قواته إلى الشاطىء الغربى بالجيزة ومعه أسلحته المختلفة من المدافع والمكفيات والسبقيات[1] ، كما أرسل إلى الغزالى الذى كان يطارد عربان أطفيح يأمره بالعبور إلى الجيزة والإنضمام للجيش[2] .

وفى الجيزة التقى الجيش العثمانى الجرار بأسلحته ومدافعه بقوات الأمير شادى بك التى لا تتجاوز الألفين من خيرة فرسان المماليك والعربان وكانت معركة رهيبة غير متكافئة من ناحية العدد والعدد ، غير أن الجيش المصرى بقيادة شادى بك أظهر بطولة خارقة ، فلم يبالوا بطلقات البندق والمدافع والسبقيات والمكفيات التى « أودت الدنيا وزلزلت تلك الصحارى ولا بقى أحد ينظر أحداً » ، من جراء هولها فحملوا على العثمانيين حملة

---

(١) المكفيات والسبقيات : آلتان من آلات الحرب استخدمها العثمانيون فى قتالهم مع المماليك ولم يكن لهم عهد بهما من قبل ( ابن زنبل هامش ص ٩٥ ) .

(٢) ابن زنبل ـ المصدر السابق ، ص ٩١-٩٤

رجل واحد ، وعمدوا إلى قادة الفرق العثمانية يقتلونهم وأعملوا سيوفهم فى الجنود العثمانيين ، وكان شادى بك يحمس الأمراء والجنود بقوله : « . . . واعلموا أنكم ما تقاتلون إلا عن حريتكم وأولادكم وأموالكم وبلادكم . . . » فاشتعلت النفوس حماسة وتقمصتها روح الفداء والتضحية وكانت معركة رهيبة يصفها ابن زنبل بقوله : « والتحموا بالروم[1] حتى صار بينهم حملات ومحاربات ومصادمات ومهاجات ومضايقات مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وصار لهم وقع بالسيف والدبابيس على الأبدان كوقع مطارق الحداد على السندل ، أو كوقع حوافر الخيل على الحجر الصوان ، وجرى بينهم من الحرب ما لا تسعه الأذهان ، وكان لهم يوم مشهود لم ير مثله فى قديم الزمان ، وكان الأمير شار بك ( شادى بك ) قتاله فى هذا اليوم قتال من استقتل ، كما ليث الغضنفر ، إن مال على جماعة طحنها ، أو على طائفة مزقها ، وفى يده سيف يقطع الأعمار قطعاً ، ويصدع الأكباد صدعاً ، فلم يكن إلا شىء قليل حتى انطفت جمرة الروم وخمدت ، وكانت حركاتهم وجمدت ورد جموعهم الأمير شار بك قهراً وزجراً بحد سيفه » [2] .

تراجعت حشود العثمانيين منهزمة أمام صمود المقاومة المصرية رغم البون الشاسع بين القوتين المتحاربتين فى العدد والعدد ، رغم كثرة القتلى فى صفوف المصريين نتيجة استخدام العثمانيين للمدفعية والأسلحة الحديثة ، حتى لم يبق مع شادى بك سوى خمسمائة فارس من الألفين اللذين كانا معه

---

(١) الروم : لفظ أطلقه مؤرخو تلك الفترة على العثمانيين وعلى بلادهم باعتبار ما كان إذ أن الدولة العثمانية قامت على أنقاض الدولة الرومية الشرقية ويطلق عليها أيضا دولة الروم ، كما سماها القرآن الكريم فى قوله تعالى « غلبت الروم فى أدنى الأرض . . . الآية » والدولة البيزنطية وهو ماشاع بين جمهرة الباحثين .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٩٩ .

الأمر الذى جعل « السلطان سليم يتأوه ويتحسر . . . ويقول ما كنت أظن أن أقاسى من أحد مثل ما قاسيت فى يومى هذا ، ولا كنت أقول إنى بهذه العشرة آلاف فارس وراجل التى هى خيار قومى ويتبعها أكثر من من عشرين ألفا ألتى فى هذا الأعور ( يقصد شادى بك ) الذى هو فى أقل من خمسمائة فارس ما لقيت منه ويفنى أكثر عسكرى[1] »

(د) تدخل عرب غزالة إلى جانب العثمانيين :

وفى اثناء ذلك تقاطرت عرب غزالة فى عدة ألوف بقيادة سلام بن خيير وأخيه حماد إلى ميدان المعركة لنصرة السلطان سليم انتقاما من المماليك ، فتحايل عليهم الأمير شادى بك حتى يبعدهم عن ميدان المعركة لينفرد بهم من جهة، وليعرضهم لقذائف مدفعية العثمانيين فى حالة اشتراكهم فى القتال بالمدفعية من جهة أخرى، وقد كان له ما أراد، فقد تظاهر شادى بك بالهزيمة وانسحب فتبعته عرب غزالة ثم اشتبك معهم وهزمهم ،وعند انسحابهم تعرضوا للمدفعية العثمانيين فقتلت منهم الكثير ، ثم وقفت عرب غزالة بعيدا ترقب الأحداث، عندئذ رأى شادى بك أن يناوش العثمانيين حتى لا يطمعوا فيه فيهجموا عليه ، فرصد قوة من فرسانه لمراقبة عرب غزالة والخيالة دون الاشتراك فى القتال، ثم هجم ببقية قواته على العثمانيين وظل القتال دائرا حتى جاء الليل فتوقف القتال ، ثم جاء رسول من قبل السلطان طومان باى الذى يعسكر ببقية القوات عند دهشور يأمر شادى بك بالتوجه بقواته إلى ضيعة وردان لينضم إلى قوات طومان باى استعدادا للمعركة الفاصلة[2] .

---

(١) المصدر السابق ص ص ٩٦ ، ٩٩ .

(٢) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ص ٩٩ - ١٠٤

**واقعة وردان :**[1]

سار الأمير شادى بك بمن بقى معه من القوات ليلا فما إن طلع النهار حتى كان عند بلدة وراق الحضر[2] فإذا به يجد السلطان طومان باى نازلا هناك بقواته ، فعقد السلطان مجلساً حربياً ، ضم كبار أمراء المماليك لدراسة الموقف وتقويمه ، واتخاذ مايلزم من قرارات ، فاستعرض الأمير شادى بك جولاته السابقة مع القوات العثمانية ، ووضع أمام المجلس خلاصة النتائج التى توصل إليها ، والتى تتلخص فى وجود خطرين أساسيين يهددان المقاومة المصرية وهما :

أولا : — أن العثمانيين رغم كثرتهم العددية لا يستطيعون الصمود أمام فرسان المماليك فى الميدان ، ومن ثم فإن جل إعتمادهم فى المعارك على أسلحتهم الحديثة وخاصـــة « هذه النار التى يرمون بها فما شعر الإنسان إلا وهو مضروب بها ، وما يعرف من أى جانب جاءته ، فإن غالب عسكرنا لم يقتل منهم أحد بالسيف إلا القليل »[3] ومع ذلك فان ميزان القوى حتى الآن لم ينقلب لصالح العثمانيين .

ثانياً : — أن الخطر الأكبر يأتى من جانب عربان غزالة الذين يتدخلون فى أثناء المعارك فى جانب العثمانيين إنتقاماً من المماليك وطلباً للثأر منهم ، ويزكى هذه الروح فيهم وفى غيرهم من العربان الخائنان خاير بك والغزالى اللذان يراسلانهم ويستميلانهم إلى جانب سليم مستخدمين معهم

---

(١) وردان ـ قرية فى حدود محافظة الجيزة .

(٢) وهى قرية من قرى مركز امبابة محافظة الجيزة وهى تقع على الشاطىء الغربى للنيل فى المكان المقابل لشبرا الخيمة ، وتوجد بجوارها قرية أخرى تسمى وراق العرب تقع غربى وراق الحضر وهى أحدث منها

(٣) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص ١٠٥

أساليب الترغيب والوعود الطيبة ، والإشادة بعدالة سليم وإنصافه ويسميانه بالملك العادل ، ويشكرانه لكل أحد عاقل وجاهل»[1] .

كان الموقف إذاً يحتم على طومان باى ضرورة معالجة موقف عربان غزالة ، وذلك إما باستمالتهم إلى جانب المقاومة ، أو على الأقل تحييدهم فى أثناء المعارك مع العثمانيين ، وهو الحد الأدنى المقبول فى تلك الظروف ، أما الخطر الأول وهو تفوق العثمانيين من ناحية العدد والعدد ( التسليح ) فهو أمر لا يمكن علاجه بالطبع إبان المعارك إلا بالمزيد من الشجاعة والجرأة والالتحام بالعثمانيين فلا يمكنونهم من استخدام هذه الأسلحة الحديثة فى أحسن وجوه استخداماتها .

اتفق الرأى على إرسال كتاب إلى عرب غزالة ، شرح فيه طومان باى موقفهم من جنوده أثناء المعارك وكيف أنهم عندما يلوح النصر للمصريين على العثمانيين يقومون بالهجوم على الجيش المصرى من الخلف ، الأمر الذى يجعل هذا الجيش ينسحب للدفاع عن نفسه ضدهم مما يفوت على المصريين النصر على العثمانيين ، كما خوفهم من الله تعالى وعاقبة المكر والبغى ، وحلف لهم إن نصروه ليقابلهم أحسن مقابلة ، وإن لم يريدوا نصرته فليبقوا على الحياد ، وأرسل هذا الكتاب مع شيخ صوفى يدعى الشيخ محمد شيخ البكارية الذى حاول إقناعهم بنصرة طومان باى لعدله وصلاحه عكس سابقيه من سلاطين المماليك ، وإلا فليتخذوا موقف الحياد ، فرفض عرب غزالة كلا الأمرين بحجة أن دولة المماليك زائلة وأنهم لا يأمنون إنتقام العثمانيين منهم فيما لو وقفوا بجانب طومان باى ، كما أنهم يريدون أن يجعلوا لهم يداً عند سليم ، عند ذلك زحف طومان باى بجيشه إلى موقع جديد كى يستعد لملاقاة العثمانيين ، وعسكر عند قرية أم

---

(١) المصدر السابق ص ١٠٦

دينار[1] فاستقبلهم أهلها بالترحات وقدموا المؤن والعليق اللازم لهم ولخيلهم[2].

أما عرب غزالة فقد انضموا إلى جيش سليم الذى اتفق معهم على أن يقوم الغزالى بالهجوم ببعض القوات على طومان باى وأثناء المعركة تقوم عرب غزالة بالهجوم من الخلف ، وكانت معركة ضارية غير متكافئة تماما ، استبسل فيها المماليك ، وقتل خيرة أمرائهم[3] فضلا عن الكثير من الجنود، وقد أظهر طومان باى ونائبه الأمير شادى بك بطولة خارقة فى هذه المعركة ، فقد حمل طومان باى على الغزالى حملة ضارية حتى أوقعه من على ظهر فرسه وهم بقتله ، لولا أن الغزالى ركع أمام طومان باى وقبل قدمه وتوسل إليه أن يعفو عنه قائلا : « إنى سألتك بالله تعالى وتوسلت إليك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبسر شيخك سيدى أبى السعود الجارحى أن تجعلنى عتيقك فى هذا اليوم » فرق له قلب طومان باى وعفا عنه بعد أن أخذ عليه العهود والمواثيق والإيمان المغلظة ألا يرفع سيفه أبدا فى وجه المماليك ، ولكن أنى للخائن أن يتوب !! ومتى كان للخائن عهد أو ميثاق ؟!

رجع الغزالى منهزما إلى السلطان سليم الذى كان قد طلب من وزيره يونس باشا أن يعبر النيل إلى إمبابة بالقوات والأسلحة الباقية معه فى الضفة الشرقية ، فانقلب ميزان القوى نهائياً لصالح العثمانيين بذلك وبانضمام عرب غزالة إليهم . وعملا بمشورة الغزالى قسم العثمانيون قواتهم إلى أربع

---

(١) وهى قرية قديمة من قرى مركز الجيزة

(٢) ابن زنبل المصدر السابق ص ص ١٠٦ ، ١٠٨ .

(٣) مثل الأمير قيت الرجبى ، والأمير قانصوه كرت والأمير قلج .

فرق : إحداهما بقيادة السلطان سليم، والثانية بقيادة الغزالى ، والثالثة بقيادة يونس باشا ، والرابعة بقيادة إياس باشا قائد الانكشارية ويعاونهم عرب غزالة على أن يطبقوا على قوات طومان باى من جميع الجهات ويفنوهم عن آخرهم .

أما طومان باى فإن قواته قد تشتتت ولم يثبت معه سوى فئة قليلة من مماليكه وبعض الأمراء . ومع ذلك لم يستسلم ، وقاتلت هذه الفئة القليلة عدوا يحيط بها من جميع الجهات ومزودا بأحدث الأسلحة بالقرب من قرية وردان ، ويصف ابن زنبل هذه الواقعة الرهيبة بقوله : « أنظر ما فعل هؤلاء الفرسان القليلة فى هذه الألوف المؤلفة والجموع التى لا تحصى من الكثرة من كل جنس ، فصارت هذه الأمراء ... متحدين الركاب فى الركاب لايفارق بعضهم بعضاً ، وبقية العساكر لايدرون أين يذهبون ولا من يقاتلون وما قتل من الجراكسة أحد بالسيف والعود ، وإنما كان القتل فيهم بالبندق

... وفى هذا اليوم قتل من الجراكسة أكثر من كل يوم بهذه العملة التى عملها قانبردى الغزالى وغالب القتل ما كان إلا بالبندق والضربزانات وآلات النيران على سائر الصنوف ، وتم النهار ونادى منادى الحرب بالانفصال ، وافترقوا على هذه الحال ، وقد تخلت الجراكسة عن بعضها ، ورجعوا وهم لا يعرفون بعضهم بعضا من شدة ما حصل لهم من هول ذلك اليوم وليس الخبر كالعيان »[1] .

---

(١) انظر ابن زنبل ص ص ١٠٨ - ١٢٠

عند ذلك رأى طومان باى ومن معه من الأمراء أن لا سبيل إلى مقاومة هذه الكثرة الكاثرة من العثمانيين فأشار عليهم باللجوء إلى حسن بن مرعى وابن عمه شكر شيوخ عرب محارب بالبحيرة ، فهم أصدقاء لطومان باى وله عليهم أياد عظيمة[1] حتى يدبروا أمرهم فساروا إليهم ليلا[2] .

القبض على طومان باى وإخفاق المقاومة :

ذهب طومان باى إلى حسن بن مرعى وابن عمه شكر اللذين استقبلاه هو ومماليكه أحسن استقبال فاستحلفهما السلطان على كتاب الله أنهما لا يخوناه ولا يغدران به ولا يدلسان عليه بشىء من الأشياء ، ولا بسبب من أسباب المسك ، ولا يدلان عليه فحلفا له على المصحف سبعة أيمان بمعنى ذلك فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما[3] .

ولكن الخيانة ذرت قرنها من جديد فى طومان باى ، فعندما سار ليلا قاصداً حسن بن مرعى سار الغزالى فى أثره متخفياً حتى علم أنه قاصد البحيرة ، فرجع وأخبر السلطان سليما بذلك وطلب منه قوة عسكرية كبيرة لمطاردة طومان باى والرجوع به أسيرا أو قتيلا ، فأمده بالقوة المطلوبة ، وسار فى اتجاه البحيرة حتى وصل إلى عرب محارب فاستقبله أميرها حسن ابن مرعى الذى كان قد خانته شهامته ، واستبدت به رغبته فى أن يكون له لدى السلطان سليم حظوة وما يستتبعها من جاه وسلطان ، رغم معارضة أمه وتذكيرها له بأيادى طومان باى عليه وبالإيمان والعهود التى قطعها على نفسه ، وتحذيرها له من مغبة تلك الخيانة إذ قالت له : « أنسيت ما فعله معك السلطان طومان باى ؟ قد أطلقك من الحبس ، وأمنك بعد الخوف

---

(١) كان لطومان باى أفضال كثيرة على حسن بن مرعى فقد أطلق سراحه من السجن الذى كان قد أودعه الغورى وجعله أميرا على عرب محارب وسدد عنه أمواله ، وأخذ عليه العهود والمواثيق أن يكون نصيرا له إذا احتاج إليه ( ابن زنبل ص ١٢١ )

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ص ١١٢ ، ١١٤

(٣) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٤

وحلفت له الإيمان بأنك ما تخونه ، فكان جزاؤه منك أن تسلمه لعدوه ، وتظن أنك إذا فعلت ذلك تلق خيرا بعده ؟ والله لئن فعلت ذلك لأغضبن عليك غضبة تكون سبباً لهلاكك »[1] .

تناسى حسن بن مرعى كل ذلك ، أو قل جفت منابع الخير والوفاء فى قلبه أمام رغبات نفسه الجامحة عندما رأى عسكر سليم ، فدلهم على مخبئه فقبضوا على السلطان طومان باى وهو متنكر فى زى الأعراب ، ووضعوه فى الحديد وتوجهوا به إلى السلطان سليم ، فلما رأى من كان مع طومان باى من الأمراء والجنود ذلك تفرقوا عنه وتشتتوا فى البلاد[2] ، هذا فى الوقت الذى كانت فيه عرب قطارة وعددهم نحو ألفى فارس قد حشدوا حشودهم مع بعض القبائل الأخرى لنصره السلطان طومان باى ، فلما رأوا ذلك رجعوا إلى ديارهم وبصحبتهم صهرهم الأمير قانصوه العادلى[3] ، فقد « كان الناس يزعمون أنه اختفى حتى يجد فرصة ويعود »[4] ومن ثم بادروا إلى نصرته ، وحتى عندما ذاعت الأخبار فى القاهرة بالقبض على طومان باى « صارت طائفة من الناس تكذب بمسكه وطائفة تصدق ذلك »[5] حتى رأوه فى الحديد بأعينهم .

وأما الأمير شادى بك الأعور نائب السلطان وقائده ، فقد لجأ إلى صديقه أحمد بن بقر شيخ عرب الشرقية ، وكان له أياد عظيمة أيضا ، فناله منه ما نال سلطانه طومان باى على يد حسن بن مرعى ، فقد خانه ابن بقر

---

(١) ابن زنبل - المصدر السابق ص ١٢٧

(٢) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٤

(٣) ابن زنبل - المصدر السابق ص ١٢٨

(٤) الاسحاقى - المصدر السابق ص ١٢٥

(٥) ابن إياس المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٤

أيضاً بعد أن أمنه على نفسه وسلمه للسلطان سليم حيث لقى مصيره المحتوم[١] .

هذا ويروى بعض المؤرخين قصة أخرى للقبض على طومان باى ، فيقولون إنه وهو فى مخبئه عند الأمير حسن بن مرعى رأى فيما يرى النائم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه فقال له : ياطومان باى إن دولتكم قد زالت وعمركم قد فرغ وأنت ضيفنا غدا . أو بعد ثلاثة أيام . أو بعد أربعة أيام على خلاف فى الرواية . فقام من فوره ، وأخبر أصحابه بما رأى ، وأوصاهم بأن يتفرقوا فى الأرض، ثم خلع سلاحه ورمى سيفه وسلم نفسه لعسكر السلطان سليم[٢] .

وهذه الرواية إن كان لها مدلول تاريخى فهو سمعة السلطان طومان باى الحسنة ، وسيرته العطرة بين المؤرخين ، واستقامته وصلاحه وتقواه ، لأن المقاومة كانت قد كتب عليها الإخفاق بالفعل نتيجة تفرق الأنصار ، وتفوق العثمانيين فى العدد والعدة ،هذا فضلا عن الحلقات المتتابعة من الخيانة وغيرها من العوامل التى سوف نذكرها بالتفصيل إن شاء الله عن حديثنا عن عوامل إخفاق المقاومة المصرية للغزو العثمانى .

شنق طومان باى على باب زويلة :

بعد القبض على السلطان طومان باى حملوه فى الأصفاد إلى السلطان سليم بمعسكره بإمبابه ،وعندما دخل عليه قام له سليم ثم عاتبه ببعض كلمات[٣]

---

(١) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ١٢٩، ١٣٠، ١٢٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩
(٢) انظر إبراهيم بك حليم - المصدر السابق ص ٨٣ ، الشيخ عبد الله الشرقاوى - المصدر السابق ص ١٣١ ، ابن زنبل
(٣) ابن إياس المصدر السابق ج ٢ ص ١١٤

دار على أثرها حوار رائع[1] لا يقل فى قوته وشدته عن الصراع المرير الذى دار بينهما فى ميادين القتال، فعندما وبخ سليم طومان باى على إصراره على معاداته وعلى قتله رسله، وقف السلطان الأسير موقفاً مشرفاً ، فانكر ذلك القتل الشنيع ، وتكلم فى غير وجل عن عدالة حقه فى القتال لأن الواجب يحتمه عليه بحكم منصبه كسلطان على البلاد، احتفاظا بشرف أهل البلاد واستقلالهم ، فكانت مناظره رائعة استخدم خلالها طومان باى كافة البراهين العقلية والنقلية فى إثبات شرعية مقاومته للغزو العثمانى، وعرض بالدور الخسيس الذى قام به الخائنان خاير بك والغزالى قائلا :

« ولكن أنا أعرف أن ماعليك أضر من هذين الشيطانين الخائنين فإنه لو كان فيهما خير لكان لنا » فمال السلطان سليم إلى عدم قتل طومان باى، لما رآه من شجاعته وسداد رأيه وتدينه وصدق إخلاصه ، حيث قال لجلسائه : « والله مثل هذا الرجل لا يقتل ولكن أخروه فى الترسيم حتى ننظر فى أمره » وكان سليم يريد أن يأخذه معه إلى استانبول .

غير أن الخائنين خاير بك والغزالى قد خشيا على نفسيهما من بقاء طومان باى حياً فألحا على سليم فى قتله بمقولة أن حكم العثمانيين فى هذه البلاد سيظل محفوفاً بالمخاطر ما عاش طومان باى « فإن أهل مصر لم يصدقوا أن سلطانهم عجز وسلم نفسه وقبض عليه ، وكذلك أهل الأقاليم والعربان فإن أردت أن تطيعك الممالك والبلاد ، وتحتوى على جميع البلاد من غير مانع يمنعك عنها ، ولا مدافع يدفعك عنها عجل بهلاكه ، وأرسل اصلبه على

---

(١) ذكر ابن زنبل تفاصيل هذا الحوار وأشاد بشجاعة طومان باى وقوته وجرأته وصدقه الذى أقنع سليما بالابقاء عليه لولا تدخل خاير بك والغزالى (انظر ص ص ١٣٢ - ١٣٦).

باب زويلة ليراه الخاص والعام، ويشاع ذلك فى سائر البلاد وتيأس الناس من بقائه وتروق الدنيا وتطمئن على نفسك وتملك هذا الإقليم العظيم .. ولقد قال بعض الحكماء : عدوك لا تصافيه وصديقك لا تجافيه»[1] فكانت حجتهما قائمة ، فصمم سليم على قتله ولكنه استبقاه عدة أيام فى معسكره يحضر مجلسه ويسائله عن شئون مصر وإدارتها وسياسة أهلها وكيفية ريها وجباية خراجها ، وبقية أمورها ، الأمر الذى جعل طومان باى يطمئن إليه ، ويظن من إقباله عليه أنه سيجعله نائباً عنه فى مصر[2] .

غير أن ذلك كان استدراجا من السلطان سليم إذ بعد ما وقف منه على كل ما أراد أمر فى يوم الإثنين ٢١ من ربيع الأول سنة ٩٢٣ هـ / ٢٣ ابريل ١٩١٧م بأن يعبروا بطومان باى إلى القاهرة، فعبروا به إلى بولاق وهو بزى الأعراب ، ثم شقوا به القاهرة وهو راكب على فرسه وأمامه أربعمائة عثمانى حتى وصلوا إلى باب زويلة ، وهو لا يدرى ما يصنع به فلما رأى الحبال مدلاة علم أنه مشنوق فتشهد وقرأ الفاتحة ثلاثاً ، وســأل الحاضرين أن يقرأوا له الفاتحة ثلاثاً ، ثم شنق أمام أعين ذلك الشعب الذى كان سلطانه قبل ذلك بأشهر قلائل والذى أحبه وقدر خلاله وبطولته ، وقد ضج الناس عليه بالبكاء والعويل ، وبقى مصلوباً ثلاثة أيام ثم أنزل ودفن خلف مدرسة الغورى ( جامع الغورى ) ، وقد رثاه إبن إياس بقوله : « فلما شنق وطلعت روحه صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف فإنه كان شاباً حسن الشكل كريم الأخلاق ، سنه نحو أربع وأربعون سنة ، وكان شجاعاً بطلا تصدى

---

(١) ابن زنبل ص ١٤٣ ، وانظر ابن العماد الحنبلى حـ ٨ ص ١٤٥

(٢) القرمانى .. المصدر السابق ص ٣١٥

لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات ، وهو فى نفر قليل من عسكره ، ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العنابرة ... وقاسى شدائد ومحناً وحروباً وشروراً وهجاجاً وتشتت فى البلدان . . . ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان ، أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط »(١).

كما لم تنج أرملة السلطان الشهيد من التعذيب ومصادرة أموالها وأمتعتها الفاخرة وما لديها من مجوهرات ونفائس بأمر السلطان سليم ، فاقتحم العثمانيون بيتها ، فنقلوا جميع ما كان لها . . . فذهب لها أشياء كثيرة بنحو خمسين ألف دينار . . . وقرر عليها وعلى والدتها عشرين ألف دينار . . . فحصل لها ولوالدتها الضرر الشديد ، وقاستا شدائد عظيمة ومحناً وبهدلة وتهديداً بالقتل (٢) .

وقد ترك إعدام طومان باى بهذه الطريقة المحزنة ، والأهوال التى لاقتها أرملته أثراً سيئاً فى النفوس حتى أن الأمير قانصوه العادلى الذى فر مع أصهاره عرب قطاره عند القبض على طومان باى ـ فكر فى الانتقام لسلطانه ، فدبر خطة للتسلل إلى قصر السلطان سليم بجوار المقياس كى يذبحه ، فتزيى بزى الأعراب ، ونزل على مركب فى النيل هو وبعض أتباعه المخلصين ليلا ، ثم غافل الحراس وتسلل إلى القصر ، ولولا أن تنبه الحراس له لبلغ مأربه ، فرمى بنفسه فى النيل ، فأنقذته جماعته الذين بالقارب ،

---

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق جـ ٣ ص ص ١١٥ - ١١٦
(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ١١٨

ونجا من مطاردة العثمانين له بالبندق ، ولكنه بقى مقهوراً لأنه لم يبلغ مقصوده [1] .

استشهد طومان باى وله من العمر أربع وأربعون سنة لم يحكم منها سوى ثلاثة أشهر ونصف ( ١٤ رمضان — ٢٩ من ذى الحجة ٩٢٢ هـ ) قضاها كلها فى الاستعداد ومقاومة الغزاة ، وعند ما سقطت عاصمته بعد واقعة الريدانية ( ٢٩ من ذى الحجة ٩٢٢ هـ ) لم يستسلم وقاد المقاومة الشعبية حوالى سبعين يوماً حتى واقعة وردان ( ١٠ من ربيع الأول ٩٢٣ هـ ) ، ظل خلالها يجمع الأنصار وينظم الصفوف ويرسم الخطط للمقاومة والدفاع ، وللايقاع بالعثمانيين أينما كانوا ، وظل يناوشهم فى حماسة منقطعة النظير ، وفى شهامة بالغة ، حيث وقعت بين الفريقين وقائع مروعة فى بولاق والصليبة وأطفيح والجيزة وغيرها ، وشهدت هذه الأماكن قصصاً أسطورية وملاحم عسكرية لهؤلاء المماليك وهم يدافعون عن مصر ، كما شهدت ضروبا من الخيانة وخسة الضمير من بعض العربان فلله دره من سلطان زهد فى الملك ثم قبله مكرها ، وشهر سيفه للدفاع عن مصر وظل ذلك السيف مشرعاً حتى أغمدته يد الغدر والخيانة ، وبموت طومان باى زالت دولة المماليك البرجية ، وانتقلت من مسرح التاريخ إلى كتب التاريخ .

### مصر ولاية عثمانية :

وبالاحتلال العثمانى صارت مصر تابعة بعد أن كانت متبوعة ، ومحتلة بعد أن كانت مستقلة ونيابة بعد أن كانت سلطنة ، وتابعة لدولة

---

(١) ابن زنبل المصدر السابق ص ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، وأنظر السير وليم موير المرجع السابق ص ١٨١ .

الخلافة بعد أن كانت داراً لها ، وبه حرمت أسباب النهوض ودخلت فى دور من التأخر والإنحلال والضعف والفاقة والجهل ، ولم يكن ما أصاب الشام وغيرها من بلاد السلطنة المصرية ، والبلاد العربية التى خضعت للعثمانيين بأقل مما أصاب مصر ، فقد دخلت جميعها فى حالة من التفكك والعزلة عن التيارات الدولية فى وقت كانت فيه أوربا تأخذ بأسباب النهوض والتقدم فى الميادين المختلفة ، الأمر الذى ظهرت آثاره واضحة فى مطلع القرن التاسع عشر ، حينما بدأت أوربا تنقض على بلاد المشرق العربى لالتهامها مبتدئة بمصر حيث كانت أحداث الغزو الفرنسى سنة ١٧٩٨ .

على أن السلطان سليم فى أثناء إقامته بمصر التى امتدت ما يقرب من ثمانية أشهر - قام بعملية نهب حضارى لمصر ، فقد أمر بفك رخام القلعة والأعمدة الرخامية الموجودة بالقاعات الكبرى بها ، كما استولى على الرخام الموجود بالمدارس وبيوت الأمراء والأعيان وكبار التجار ، وذلك بقصد نقله إلى استانبول لبناء مدرسة له ، كما استولى العثمانيون على التحف والأوانى المعدنية والمجوهرات من الذهب والفضة ، حيث قاموا بعملية سلب ونهب واسعة النطاق لم يسلم منها أحد ، استوى فى ذلك أرملة طومان وأمراء المماليك وكبار التجار مع عامة الناس : حيث بلغ ما حمله سليم - بخلاف ما استولى عليه القواد والجنود معه أثناء عودته إلى استانبول - على حد تعبير ابن إياس - نحو « ألف جمل محملة ما بين ذهب وفضة ، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى . . . والخيول والبغال وغير ذلك »(١) ، كما أرسل إلى استانبول الخليفة المتوكل على الله وبصحبته أهل وعشيرته ، وبعض الأعيان وأرباب الحرف المختلفة حتى تعطلت الصنائع فى مصر .

---

(١) ابن إياس - المصدر السابق ، ج٥ ص ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٢

وفى أثناء ذلك دخل إقليم الحجاز دخولا سلميا تحت السيادة العثمانية، فقد رأى الشريف بركات شريف مكة أن يبادر بإعلان ولائه للعثمانيين عقب رسالة جاءته من سليم ، إبقاءاً على الروابط الاقتصادية التى تربط إقليم الحجاز بمصر ، فقد كانت الأخيرة تمد الحجاز كل عام بالغلال والأموال لفقراء مكة والمدينة ، والمرتبات والهدايا للاشراف ، ومن ثم بادر الشريف بركات بإرسال ابنه إلى السلطان سليم بالقاهرة يحمل التهانى ومفاتيح الحرمين الشريفين ، فأكرم سليم وفادة الإبن وأعطاه تفويضا بحكم والده ، وقرىء التفويض فى مكة المكرمة ، وخطب باسم سليم واحتفظت الدولة العثمانية بنظام الشرافة كما كان أيام دولة المماليك،وأنشأت صنجقية عثمانية فى جدة ، كما كافأ السلطان سليم - قبل رحيله من مصر الخائنين خايربك والغزالى فأعطى الأول نيابة مصر والثانى الشام ، وفى يوم الثالث والعشرين من شعبان سنة ٩٢٣ هـ سبتمبر ١٥١٧ م رحل السلطان سليم عن مصر - بعد أن وضع نظاما جديدا للحكم وبعد أن شاهد الأهرام ، وزار الإسكندرية - ومعه الغنائم والوزراء، كما أخذ معه ابن السلطان الغورى، وعدداً كبيراً من أمراء المماليك والأعيان والعلماء وكبار التجار والصناع والمهندسين ، وترك بمصر حامية عثمانية مكونة من خمسة آلاف فارس وخمسمائة من رماة البندق والرصاص تحت قيادة خير الدين أغا الإنكشارى لحفظ الأمن فى البلاد . وباختصار ترك مصر خالية من كل ما يفيد .[1].

---

(١) المصدر السابق ، جـ ٣ ص ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ .

# الفصل الخامس

## عوامل إخفاق المقاومة المصرية للغزو العثمانى

فى الواقع أننا إذا أردنا التحدث عن عوامل إخفاق المقاومة المصرية للغزو العثمانى على عهد السلطان طومان باى ، فان ذلك يستلزم منا أن نلقى الضوء على جذور تلك العوامل إبان عصر السلطان الغورى ذلك أن عصر السلطان طومان يعتبر امتداد طبيعيا لعصر السلطان الغورى ، فقد تولى طومان باى السلطنة فى مصر عقب مقتل الغورى فى مرج دابق فى ظروف صعبة للغاية ، حيث الجيش قد مزق بعد الهزيمة ومقتل السلطان ، والعدو يزحف تجاه العاصمة ، ومن ثم فاننا لانستطيع أن نفرق بين عصر كل منهما ، لأن الظروف السيئة التى مرت بها مصر إبان عصر الغورى ، هى هى نفس الظروف - بل وأسوأ منها - التى مرت بها فى عصر طومان باى ، ومن ثم أيضا فان عوامل هزيمة الغورى فى مرج دابق ، هى نفسها - بالإضافة إلى ما استجد - العوامل التى أضعفت مقاومة طومان باى فى الريدانية ومابعدها ، ذلك أن كل مساوىء عصر الغورى قد انسحبت تلقائيا على عصر طومان باى الذى لم ينفعه تدينه ولا خلقه ولا عدله ولا شجاعته ومروءته وزهده فى إنقاذ مصر من الوقوع تحت الإحتلال العثمانى .

وبإمعان النظر فى تلك العوامل نجد أنها تنقسم إلى قسمين : عوامل اتصلت بالجانب العثمانى ، وأخرى اتصلت بالجانب المملوكى (المصرى) .

( أ ) أما العوامل التى اتصلت بالجانب العثمانى فيمكن إبرازها فيما يلى :

أولا - الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية ناهضة - فقد حققت هذه الدولة أمجادا عسكرية فى الميدان الأوربى ، فأزالت من خريطة العالم أعظم

امبراطورية مسيحية عرفها التاريخ الوسيط ، وهى الإمبراطورية البيزنطية، كما اكتسحت الكثير من الممالك المسيحية فى شرق أوربا ، الأمر الذى اكسبها صفة دولة الإسلام المجاهدة ضد أوربا الكافرة حتى لقب سلاطينها - بحق - بلقب « الغازى »(١) وبالتالى أكسبها ذلك مكانة معنوية رفيعة فى العالم الإسلامى ساعدتها على غزو العالم العربى دون عناء يذكر(٢) ، وذلك لأن المجتمعات حينذاك كانت مجتمعات إسلامية فكان من السهل تقبل حكم العثمانيين كمسلمين لهم سمعتهم التاريخية فى الجهاد والدفاع عن الإسلام ، وأبرز دليل على ذلك رفض طائفة المغاربة بمصر الإنضمام إلى صفوف المقاومة المصرية حينما طالبهم طومان باى بذلك بحجة أن العثمانيين مسلمون وأنهم لا يرفعون سيوفهم إلا فى وجه الكفار(٣) .

ثانياً — النظام العسكرى العثمانى : وهذا النظام يكفل للسلطان السيطرة التامة على جنوده وطاعتهم له وأساس هذا النظام هو الجيش الانكشارى الذى تكون فى عهد السلطان أورخان سنة ٧٢٩ هـ(٤) فكان

---

(١) أنظر محمد فريد بك - تاريخ الدولة العلية العثمانية - دار الجيل بيروت ١٩٧٧ فهو يلقبهم جميعاً بالغازى الاسحاقى - المصدر السابق ص ١٢٦

(٢) أنظر ساطع الحصرى - البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٢ . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٦٠ ص ص ١٣ - ٢٨

(٣) ابن إياس - المصدر السابق جـ ٣ ص ٩١

(٤) يرى الاسحاقى أن هذا الجيش تكون فى عهد السلطان مراد بن أورخان ( انظر ص ١٢٦ ) . وقد تكون هذا الجيش من أسرى الحرب من الشبان فكان يتم فصلهم عن كل ما يذكرهم بأصلهم وجنسهم ويربون تربية اسلامية عثمانية بحيث لا يعرفون لهم أبا إلا السلطان ، ولا حرفة إلا الجهاد فى سبيل الله ، ونظراً لعدم وجود أقارب لهم بين الأهالى لم تنشأ بينهم الحزبية ، وقد أطلق عليهم « ينى تشارى » ويرسم بالتركية هكذا « يكيجارى » ، أى الجيش الجديد ، ثم حرف فى العربية فصار انكشارى ، وقد ارتقى هذا النظام ، وزاد عدده حتى صار لا يعول إلا عليه =

أولى جيش نظامى ولاؤه المطلق السلطان ، ومهمته الأساسية هى الحرب ، وعلى أكتاف هـذا الجيش تمت الفتوحات العثمانية واتسعت الامبراطورية [1] . وقد اعترف طومان باى نفسه بولاء الجيش الانكشارى للسلطان سليم وأن هذا الولاء كان من أسباب فشل المقاومة حيث قال للجنود الذين قبضوا عليه عند حسن بن مرعى بعد نقاش معهم أثناء السير حول مرتباتهم الضئيلة : « قد غلبنا سلطانكم لطاعتكم له على هذا القدر اليسير » من النفقة[2] .

ثالثاً — الأسلحة الحديثة : — التى زود بها سليم جيشه ، وقد لمسنا أثناء حديثنا عن المقاومة أثر هذه الأسلحة فى سير المعارك ، وكيف أن البندق والرصاص قد لعبا دوراً أساسياً فى قتل الكثير من فرسان المماليك الذين كانوا يحصدون العثمانيين بسيوفهم حصداً ، هذا فضلا عن المدافع الحديثة التى زودت بها القوات العثمانية أثناء زحفها على مصر ، والتى أفزعت الخيول وفرقتها من هول طاقاتها ، فضلا عن آثارها المدمرة لروح المقاومة مما جعلت طوائف العربان تتخلى عن نصرة طومان باى قائلين : « من يطيق هذا الأمر المهلك ، لا يقاتل هؤلاء إلا مجنون أوفارغ من الحياة »[3] ، وقد أمدنا المؤرخ ابن زنبل بتفصيلات وافية عن مدفعية

---

= فى الحروب فكان من أكبر وأهم عوامل اتساع الدولة العثمانية ، ولكنهم خرجوا فيما بعد عن حدودهم وتعدوا واستبدوا ، مما جعلهم سببا فى تأخر الدولة وتقهقرها ، وقد استمرت هذه الفئة عونا للدولة على أعدائها حتى تغيرت أحوالها وازداد طغيانها الذى وصل إلى حد قتل السلاطين فقضى عليها السلطان محمود الثانى فى ١٦ يونيه سنة ١٨٢٦ - ( محمد فريد بك . المصدر السابق ص ٤٢ ، ساطع الحصرى - المرجع السابق ص ١٧ )

(١) إبراهيم بك حليم - المصدر السابق ص ٣٨

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ١٣١

(٣) المصدر السابق ص ص ٦٥ - ٦٦

العثمانيين التى زحفوا بها إلى مصر بعد مرج دابق فيقول : « كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين بالشام وجاء معه بمصر ستمائة ، منهم مائة وخمسون مدفعاً كبيراً ، والبقية طربزانات ( مدافع أصغر ) كان طول كل واحدة منها خمسة وعشرون شبراً ، وكان يسحب كل واحدة من الصغار أربعة رؤس خيل ، وأما الكبار فكان كل واحد يسحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل ، وكان كل واحد منها مكسياً بجوخ أحمر . . . ولما دخل مصر كان أول المدافع فى الريدانية وآخرهم فى الخانقاه ، وكان عسكره كالنمل فى الوادى ... »[1] .

رابعاً — الروح المعنوية العالية : — مما لا شك فيه أن الانتصارات العسكرية التى حققها العثمانيون على الصفويين فى موقعة تشالديران سنة ٩٢٠ هـ / ١٥١٤ م ودخولهم تبريز عاصمة الصفويين ، واستيلاءهم على الكثير من الغنائم والأسرى ، بالاضافة إلى استيلائهم على إمارات الحدود مع الدولة المملوكية فى الشام[2] وانتصارهم الساحق على جيش الغورى فى مرج دابق ( ٩٢٢ هـ ) وتمزق الجيش المصرى بعد مقتل سلطانه ودخول العثمانيين مدن الشام التى فتحت أبوابها لهم ورحبت بهم — كل ذلك رفع الروح المعنوية للجيش العثمانى وجعله فى موقف عسكرى ممتاز ، فقد استولى على الجناح الشمالى من الدولة المملوكية وأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى مصر ، فإذا ما قارنا ذلك بموقف طومان باى وجيشه الممزق الذى زادته تمزقاً أصابع الخيانة والأنانية — أدركنا النتيجة المحتومة رغم محاولات طومان باى المستميتة بعث روح المقاومة فيه .

خامساً — التجسس والحرب النفسية : فقد استخدم العثمانيون فى حربهم مع المماليك أسلوبى التجسس والحرب النفسية أبرع استخدام ،

(١) المصدر السابق ص ١١٠

(٢) القرمانى - المصدر السابق ص ص ٣١٤ - ٣١٥

وفي التجسس ضرب سليم بسهم وافر في هذا الميدان (١) ، فقد استطاع أن يجمع المعلومات الوفيرة عن أحوال مصر السياسية والاجتماعية والعسكرية بواسطة جواسيسه الذين كان يرسلهم إلى السلطان الغوري في هيئة وفود للزيارة ، فيمكثون في ضيافته بمصر مدة طويلة يحضرون خلالها الاحتفالات والاستعراضات العسكرية التي كان السلطان الغوري يقيمها في المناسبات (٢) وبذلك يستطيعون التعرف على أدق المعلومات عن إمكانيات مصر العسكرية وعن أحوالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأيضاً عن طريق بعض أمراء المماليك الذين فروا من اضطهاد الغوري لهم والتجأوا إلى السلطان سليم وأقاموا عنده وزودوه بكافة المعلومات التي يريدها مثل الأمير خشقدم السالف الذكر (٣) ، وأيضاً بواسطة بعض العملاء الذين نجح سليم في تجنيدهم للتجسس لصالحه مثل الأمراء : إبراهيم السمرقندي ، ويونس العادلي ، والعجمي الشنقجي — وهم من أخصاء السلطان الغوري ومن المقربين إليه — فقد كانوا — على حد تعبير ابن إياس — مراسلين على السلطان وكانوا يكاتبون سليم شاه بن عثمان في الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة وصاحب البيت أدرى بالذي فيه » (٤) .

وفي مجال الحرب النفسية — استخدم سليم هذا الأسلوب العسكري الخبيث ابرع استخدام ، فعقب انتصاره على الصفويين ، استولى على بعض إمارات الحدود الشامية التي بين الدولة العثمانية والدولة المملوكية ، ولم يكتف

---

(١) زين الدين التحريري الحنفي - الدر المنضد في مدح الوزير محمد - مخطوط بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٧٩٨ تاريخ تيمور . ص ١٣٧ ، الغزي - المصدر السابق - ج١ ص ٢٠٨ ، ابن العماد الحنبلي - المصدر السابق - ج٨ ص ١٤٤

(٢) ابن إياس - المصدر السابق . ص ص ٩١٧ ، ٩٢٤ ، ٩٢٨ ، ٩٣١ ، ٩٠٥ ، ٩٣٦ ، ٩٥٦ مجلد واحد

(٣) انظر هامش ص      من هذا البحث .

(٤) ابن إياس - المصدر السابق - ج ٣ ص ٥٦ .

بذلك بل أرسل رسولا من عنده يحمل رأس على دولات [1]، ورأس ولده ورأس وزيره فى صندوق إلى السلطان الغورى ، بقصد إثارة الفتنة فى صفوف المماليك ، الأمر الذى نتج عنه إثارة الفتنة والفزع واليأس فى صفوف أمراء المماليك ، وحصل فى ذلك اليوم بين السلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه فى الكلام وقالوا له : يامولانا السلطان غالب البلاد الحلبية ( يقصدون إمارات الحدود القريبة من حلب ) خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان وخطب له فيها باسمه ، وضربت له السكة باسمه . . . . وفسدت أحوال المملكة وغالب الرعية فى حلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم بيميلوا إلى ابن عثمان لأجل عدله فى الرعية ، وهذه الأحوال غير صالحة . . . » [2] ، وبعد استيلائه على الشام وأثناء استعداده للزحف على مصر استخدام سليم اسلوب الحرب النفسية مرة أخرى ضد المقاومة المصرية بقيادة طومان باى ، فقد عمد سليم إلى إشاعة الأخبار المضللة والمتخبطة بل والمتناقضة ، التى تصور أحيانا سوء موقفه فى البلاد الشامية ونيته العودة إلى بلاده ، كما تصور أحيانا أخرى استسلام الشام له وترحيبهم به وأحيانا ثالثة تصور بطشه وجبروته وتهديده بدخول مصر وإبادة المماليك والمصريين والتمثيل بجثثهم ، وكان يعمل على أن تصل هذه الشائعات إلى المماليك فى مصر وتنتشر بين المصريين عن طريق إرسال الرسل والجواسيس والعملاء الذين كان يرسلهم إلى مصر فى هيئة الهاربين من بطش سليم ، وذلك حتى يحدث الفزع والارتباك فى صفوف المماليك فيصعب عليهم توحيد صفوفهم ، واتخاذ القرار السليم ووضع الخطط المحكمة لمواجهته ، وقد كان ذلك [3].

---

(١) أمير الابلستين إحدى إمارات الحدود ، وكان مواليا للسلطان الغورى

(٢) ابن إياس - المصدر السابق - ص ٩٧٣ مجلد واحد

(٣) المصدر السابق ، جـ ٣ انظر ص ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

سادسا ـ أضف إلى ذلك أيضا أن العثمانيين مهدوا لزحفهم على الدولة المملوكية المصرية ، فاتصلوا بسكان الحجاز ـ الخاضع للسيادة المصرية ـ وقدموا لهم الهدايا والمساعدات المستمرة ، وأقاموا علاقات وطيدة بينهم وبين آل قتادة الذين ينتسب إليهم أشراف مكة ، الأمر الذى أعد النفوس لقبول تدخل العثمانيين فى الشئون الداخلية لجزيرة العرب (١) وكان أول من اتصل بسكان الحجاز وأرسل الصرة لسكان الحرمين الشريفين هو السلطان محمد الأول بن بايزيد ( ٨١٦ - ٨٢٥ هـ ) (٢)

ب ـ وأما العوامل التى اتصلت بالجانب المملوكى ( المصرى ) فيمكن ابرازها فيما يلى :

أولا ـ التدهور الاقتصادى ـ كانت دولة المماليك البرجية فى مصر والشام ـ والتى لها سيادة على اقليم الحجاز ـ قد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة ، وقرب أفول نجمها فى سماء التاريخ نتيجة حالة التدهور الاقتصادى التى أصابتها نتيجة عوامل كثيرة مثل الحروب الخارجية دفاعا عن حدودها ، وشراء المماليك وكثرة النفقات فى العمائر ، والعوامل الطبيعية كالأوبئة ونقص مياه النيل وغيرها ، ولكن كان أهم هذه العوامل هو اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨م على أيدى البرتغاليين ، وما تبع ذلك من تحول التجارة الشرقية العالمية عن المرور فى أراضيها إلى الطريق الجديد ، وحرمانها من المكوس الجمركية العالية التى كانت تجمعها وتفيض بها الخزانة المصرية ، ذلك أن مصر كانت مستودعاً لسلع الهند وجزيرة العرب بعد سقوط بغداد لتوزع إلى أوربا عن طريق البحر المتوسط ، وكان المسلمون سادة الملاحة فى المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج العربى ، فكانوا

---

(١) سيديو ـ تاريخ العرب العام ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٢ ، عيسى البابى الحلبى القاهرة ١٩٦٩ ص ٤٣٠

(٢) الاسحاقى ـ المصدر السابق ـ ص ١٢٦

يجلبون سلع الهند وغيرها عن طريق التجار المسلمين وتمر في طريقها إلى أوربا بعدة طرق : كان شطر ضئيل منها ينقل براً بالقوافل في أواسط آسيا إلى القسطنطينية ومنها إلى أنحاء أوربا ، بينما كانت معظم السلع تسلك طريقين آخرين : أحدهما طريق الخليج العربي إلى ميناء البصرة ثم نهر الفرات ، ومنه تنقلها القوافل إلى ثغور الشام ، وثانيهما طريق البحر الأحمر إلى ميناء السويس ثم تنقل براً إلى القاهرة ومنها إلى الاسكندرية أو دمياط في النيل ، حيث تنقل السفن الإيطالية هذه البضائع من موانىء مصر والشام إلى إيطاليا لعرضها في سوق ريالتو أشهر أسواق التجارة في حوض البحر المتوسط لتباع في المزاد العلني للتجار الألمان والإنجليز وغيرهم [1] .

وكان الطريقان الأخيران الرئيسيان يسيطر عليهما المماليك فكان ذلك من أسباب ثرائهم ، وعبثاً حاول السلطان الغوري وحلفاؤه البنادقة منع البرتغاليين من السيطرة على تجارة الشرق ، وكانت واقعة ديو البحرية ( ١٥٠٩ م ) بالقرب من الشواطىء الهندية آخر هذه المحاولات فقد حطم ألبوكيرك البرتغالي أسطول المصريين في هذه المعركة الحاسمة التي سيطر بعدها على المياه الهندية سيطرة كاملة وأنشأ في جزيرة سوقطرة حصناً للاشراف على مضيق باب المندب ومراقبة الملاحة في البحر الأحمر فبدد كل أمل للمماليك [2] فكان حرمان المماليك من هذا المورد الاقتصادي الهائل عاملا أساسياً في تدهور حالتهم الاقتصادية . [3] .

( ١ ) د الشناوي المرجع السابق ص ص ٨٤ ، ٨٥

(٢) السير وليم موير - المرجع السابق ص ص ١٦٨ - ١٦٩ ، سيديو - المرجع السابق ص ص ٤٢١ - ٤٢٢ .

(٣) انظر مظاهر هذا التدهور الاقتصادي في ابن إياس المصدر السابق ص ص ٧٠٠ ، ٧٥٢ ، ٨٢٩ ، ٩٠٦ ، ٩٠٩ مجلد واحد وغيرها صفحات كثيرة .

ولا شك أن العامل الاقتصادى كان وسيظل دائماً هو الدعامة الكبرى التى تستند إليها أية دولة فى قيامها وبقائها ، فإذا تطرق الضعف إلى هذه الدعامة جاء ذلك نذيراً بتداعى الدولة وانهيارها ، فقد ترتب على هذا التدهور الاقتصادى مساوىء أخرى كثيرة منها قيام المماليك - لسد إحتياجاتهم المالية ، وحفاظاً على حياتهم المعيشية المترفة - بفرض الضرائب الكثيرة المرهقة ، وبغارات السلب والنهب ومصادرة الأموال ، وقد تساوى فى ذلك عامة الناس مع كبار الموظفين والعلماء ، ولم تسلم من ذلك اقطاعات المصريين وأوقافهم ، كما لم تسلم المساجد من التفكير فى هدمها بحثاً عن الكنوز تحت جدرانها ، وغير ذلك من الوسائل الكثيرة للحصول على الأموال[1] مما جعل الأهالى فى حالة سيئة ويتمنون زوال دولة هؤلاء المماليك[2] ولا غرو فقد كان الغورى « شديد الطمع كثير الظلم والعسف ويصادر الناس فى أموالهم وإذامات أحد أخذ جميع أمواله، واتخذ مماليك ( جلبانا ) فصاروا يظلمون الناس ظلما كثيراً فتوجه الناس فيهم وفى سيدهم إلى الله »[3] .

هذا وقد انعكس سوء الأحوال الاقتصادية فى دولة المماليك على الجيش والاستعدادات العسكرية وتصرفات الجنود . فقد كثرت حوادث التمرد والفتن والثورات التى قام بها المماليك الجلبان على السلطان الغورى نظرا لقلة النفقة وقطع المرتبات ، حتى أعلن الغورى أكثر من مرة رغبته فى خلع نفسه من منصبه خوفا على حياته ، وكان يصحب هذه الحوادث

---

(١) انظر ابن إياس - المصدر السابق ص ص ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٤ ، ٧٣٧ ، ٧٤٤ ، ٧٤٩ ، ٧٥٢ ، ٧٥٥ ، ٧٦٩ ، ٧٧٦ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨٢ ، ٨٠٣ ، ٨٣٢ ، ٨٤٨ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٩ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ مجلد واحد

(٢) الاسحاقى - المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٣) الشيخ الشرقاوى - تحفة الناظرين ص ص ١٣٠ - ١٣١

عمليات السلب والنهب الواسعة النطاق فى جميع أنحاء القاهرة ، ولا تخمد هذه الفتن إلا باستجابة السلطان لمطالبهم[١]، ويظهر أثر ذلك واضحاً عند خروج حملة عسكرية ، فعندما علم الغورى بخروج سليم لمحاربة الصفويين أعد تجريدة عسكرية وأرسلها إلى حلب سنة ٩٢٠ هـ لترقب الأحوال عن قرب وتوافيه بأخبار تحركات كل من سليم والصفوى ، ولكن ما إن وصل الجيش إلى حلب حتى نسى مهمته الأساسية وهى مراقبة الأعداء ، ودب التنابذ بين الجنود وحركتهم الأطماع وحب المال ، فعاثوا فساداً فى حلب ، فنهبوا بيوتها وأسواقها واستباحوا نساءها وغلمانها ، ونبذوا طاعة قادتهم ، فكانوا شر دعاية للغورى ودولته مما اضطر نائب حلب ورجاله إلى كبح جماحهم فوقع القتال بينهم ، وانتشرت الفتنة بذلك فى أرجاء المدينة حتى بدا عليها شبح الخراب ، وهكذا كانت التجريدة سبباً فى اضطراب الأمن بدلا من حفظه ، وأداة لتنفير الناس بدلا من تأليفهم لمواجهة الخطر المرتقب الأمر الذى اضطر الغورى إلى إعادة هذه التجريدة فعاد جنودها متفرقين بعد أن باعوا خيولهم ودوابهم وأمتعتهم وأسلحتهم ليعيشوا بأثمانها — كما زعموا — وتركوا فى حلب وأهلها أسوأ الآثار وآلم الذكريات مما لم ينسه الحلبيون ، فقد انتقموا فيما بعد من جنود الغورى — إثر معركة مرج دابق — شر انتقام[٢] .

وعندما تأكد للغورى صدق عزم السلطان سليم على مهاجمة الشام أخذ يعد الحملة الكبرى للخروج إلى حلب لملاقاة سليم ، وقد واجهته صعوبات كثيرة فى ذلك ، من محاولته ترضية المماليك القرانصة لكى يخرجوا معه ، ومن تذمر العسكر قاطبة لقلة الانفاق عليهم ، ومن عمليات السلب والنهب

---

(١) ابن إياس - المصدر السابق ص ٧٦٣، ٧٦٤، ٧٩٥، ٨٣١، ٨٣٥، ٨٣٦، ٨٦٩ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٩٠٨ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣، ٩٨٦، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ( مجلد واحد ) .

(٢) المصدر السابق جـ٣ ص٤٩

التى حدثت بالبلاد أثناء تجهيز الحملة نتيجة قلة الانفاق ، كما واجه طومان باى نفس الصعوبات بسبب قلة النفقة ، عندما أراد حشد قواته استعدادا للدفاع عن مصر بعد هزيمة مرج دابق[١] . وهذا يعطينى صورة صادقة لأثر العامل الاقتصادى فى إخفاق المقاومة المصرية للغزو العثمانى .

ثانيا — انقسام جيش المماليك إلى شيع وأحزاب - أضف إلى العامل الاقتصادى ضيعة الجيش المملوكى ، فقد كان هذا الجيش الذى خرج مع الغورى لملاقاة سليم جيشا مفكك الأوصال ، الفتنة تذرقنها بين جنوده ، وقد حدثت الفتنة بالفعل فى أثناء معركة مرج دابق نتيجة انقسام الجنود إلى أحزاب متطاحنة أشهرها القرانصة والجلبان ، وقد أذكى الغورى بتصرفه نار هذه الفتنة ، حينما أمر المماليك القرانصة بالتقدم للقتال بقصد التخلص منهم بينما وقف مع مماليكه الجلبان خلفهم ، ويصف ابن زنبل هذا الموقف الدقيق أثناء المعركة بقوله : « فتغيرت نياتهم ( يعنى القرانصة ) عليه وقالوا له : نحن نقاتل بأنفسنا مع النار ، وأنت واقف تنظر إلينا كالعين الشامتة ، وما تأمر أحدا من مماليكك يخرج الميدان ، فكان المعسكر كله مختلفا ، فى بعضه مفسود النية ليس لهم رأى يرجعون إليه ، ولا تدبير يقفون عليه بل كل من تكلم كلاما يقول الآخر بضده ، فمن ذلك انخرط نظامهم »[٢] . وقد كانت هزيمة مرج دابق هى البداية الحقيقية لاخفاق المقاومة المصرية للغزو العثمانى ، نظرا لما ترتب عليها من سقوط الشام كله تحت أقدام العثمانيين ، وفتح الطريق أمامهم للزحف على مصر ، واستيلائهم على أسلحة المماليك وذخائرهم ونفائسهم التى كان الغورى قد صحبها معه وأودعها قلعة حلب ، حتى أن طومان باى حينما بدأ يستعد للمقاومة لم يجد فى الخزائن شيئا كما سبق أن رأينا ، هذا فضلا عن قتل الكثير من أمراء المماليك وشجعانهم ،

---

(١) المصدر السابق ج٣ ص ٤، ٥، ٩، ١٠، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٨٤

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ٢٠، ٢٨، وأنظر ابن إياس ج٣ ص ٤٦

وسيادة حالة الفزع واليأس فى نفوس الباقين ، وهذا لا يقلل بطبيعة الحال من بطولة المقاومة المصرية التى قادها السلطان طومان باى بعد مرج دابق، فهذه كانت أشبه بصحوة الموت .

ثالثا — الخيانة : وأكثر من ذلك فقد ظهرت الخيانة فى صفوف المماليك ، فكانت هى السوس الذى نخر فى عظم المقاومة المصرية ، فقد استطاع سليم أن يضم إلى جانبه بعض قواد الغورى ونوابه فى الشام مثل نائب حلب خاير بك « الذى كان موالسا على السلطان الغورى فى الباطن وهو مع ابن عثمان »[١] وكان قبل المعركة يراسل السلطان سليم « ويحرضه على المجىء إلى أخذ مصر من الجراكسة »[٢] ، وأيضا نائب حماه جان بردى الغزالى الذى انضم مع خاير بك إلى العثمانيين ، فراسلا سليما أثناء المعركة « وطلبا منه الأمان ووثقا منه ألا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما فأرسل السلطان سليم لهما الأمان وعهد لهما أن يطيب خاطرهما ، وأن يعطى خاير بك مصر والغزالى الشام ، فقبلا منه ذلك ووافقاه »[٣] وقد تخلى الخائنان عن الغورى أثناء المعركة ففرخا ير بك بمن معه من ميمنة الجيش ، كما فر الغزالى بمن معه من ميسرة الجيش ، وبقى الغورى بمن معه من خواص أتباعه فى القلب ليلقى مصيره المحتوم[٤] ، على الرغم من انتصار المماليك فى بادىء الأمر على الجيش العثمانى بفضل الشجاعة والفروسية التى اشتهر بها المماليك حتى أن السلطان سليما هم بالهرب ، أو بطلب الأمان بعد أن قتل من جنوده

(١) ابن إياس ـ المصدر السابق حـ٣ ص ٤٦

(٢) ابن زنبل ـ المصدر السابق ص١٥

(٣) الاسحاقى ـ المصدر السابق ص ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، وأنظر الغزى ـ المصدر السابق حـ ١ ص ١٦٨ ، ابن العماد الحنبلى ـ المصدر السابق حـ ٨ ص ١٥٠

(٤) الغزى ـ المصدر السابق حـ ١ ص ١٦٨ ، ابن العماد الحنبلى المصدر السابق حـ ٨ ص ١٥٠

فرق العشرة آلاف ،[١] وقد رأينا الدور الخطير الذى قام به الخائنان خاير بك والغزالى بعد ذلك عندما استأنف طومان باى المقاومة فى غزة والريدانية وما أعقبهما من معارك .

وجدير بالذكر أن الغزالى قد لقى فيما بعد جزاء خيانته ، فقد تولى نيابة الشام مكافأة له على خيانته ثم بعد وفاة السلطان سليم ، وفى عهد ابنه سليمان المشرع خرج عليه الغزالى يريد الاستقلال بالشام وإعلان نفسه سلطانا عليها فأرسل له سليمان جيشا كثيفا أوقع الهزيمة بالغزالى الذى قتل فى أثناء المعركة[٢] .

هذا ولم تكن الخيانة إبان المقاومة المصرية للغزو العثمانى وقفا على أمراء المماليك بل تعدتهم إلى العربان ، فهذا هو الأمير أحمد بن بقر شيخ عربان الشرقية يستجيب لطلب العدو وأن يمده بالمؤن لجيشه وينضم إليه ، كما أنه يرتكب أبشع ألوان الخيانة فى حق صديقه وصاحب الفضل عليه الأمير شادى بك حينما لجأ إليه بعد القبض على طومان باى ، فيطعمه ويؤمنه على نفسه ثم يسلمه للسلطان سليم ليطيح برأسه مقابل عرض من أعراض الدنيا الزائل -- كما سبق أن رأينا ، وأيضا الأمير حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة الذى لجأ إليه السلطان طومان باى — وكان له عليه أياد عظيمة — فخان الأمانة ونكث العهد وحنث باليمين وسلمه إلى عدوه ، وقد كوفىء حسن بن مرعى على خيانته ولكن القدر لم يمهله كثيرا ، ففى ربيع الأول سنه ٩٢٥ هـ قتل حسن بن مرعى غيلة أيضا ، فشرب المماليك من دمه ، وعندما علقت رأسه فى القاهرة أقام أصدقاء الشهيد معالم الزينة ، فكان الجزاء من جنس العمل[٣] .

---

(١) ابن إياس - المصدر السابق جـ٣ ص ٤٦ ، ابن زنبل - المصدر السابق ص ٢٩

(٢) الغزى - المصدر السابق جـ١ ص ص ١٦٩ - ١٧٠ ، ابن العماد الحنبلى - المصدر السابق - جـ ٨ ص ١٥١ ، ابن زنبل - المصدر السابق ص ص ١٥٤-١٦٤

(٣) ابن إياس - المصدر السابق جـ٣ ص ص ١٩١ - ١٩٢

أما الخيانة الكبرى التى كانت من العوامل الأساسية فى انهيار المقاومة المصرية للغزو العثمانى فهى انضمام عرب غزالة إلى صفوف العثمانيين، وقد رأينا كيف أن تدخلهم فى الحرب أثناء المقاومة كان يضعف منها، ويحول بينها وبين تحقيق أى نصر على القوات العثمانية، ثم انحازوا نهائياً إلى جانب العثمانيين واشتركوا معهم فى الواقعة النهائية (واقعة وردان) التى قضت على الأمل النهائى فى المقاومة.

رابعاً — أضف إلى ذلك أن المماليك كانوا يعتزون بالفروسية والكر والفر، ويعتقدون أن الشجاعة والبطولة الفردية فى النزال والطعن كفيلة بتحقيق النصر فى المعارك. وها هو الأمير شادى بك يخاطب جنوده فى أثناء معارك المقاومة بقوله «يا آل جركس اثبتوا فإن القتال ليس بكثرة العدد والعدد، وإنما هو زيادة الصبر والجلد... ولا يغرنكم كثرتهم... فإنى ما رأيت فيهم فارساً أعجبنى كره وفره... الشجاعة صبر ساعة»[1] وعلى ذلك فقد تجمدوا فى تفكيرهم العسكرى ولم يطوروا أسلحتهم بما يتواءم والتطور العام فى الأسلحة الحديثة، ومن ثم فقد كانت المعارك الحربية التى خاضتها المقاومة المصرية ضد الغزو العثمانى غير متكافئة من ناحية التسليح، وقد أدرك المماليك ذلك - كما سبق أن أشرنا - ولكن بعد فوات الأوان، وها هم أمراء المماليك يتناقشون عقب إحدى المعارك فيقررون أن «هؤلاء القوم (العثمانيين) قد عرفناهم، ليسوا بأفرس منا ولا أشجع منا حتى نهابهم، وإنما ضرورتنا من هذه النار وهذا البندق والرصاص ومن هذه الضربزانات التى لو رموها على الجبال لأزالوها»[2]، وقد نتج عن ذلك إخفاق المقاومة حيث لم تنفعهم بطولتهم وفروسيتهم فى شىء اللهم إلا فى طول مدة المقاومة.

(١) ابن زنبل - المصدر السابق ص ١١٩

(٢) ابن زنبل - المصدر السابق ص ٩٨

# خاتمة

هذا البحث يعد جديداً من نوعه فى الدراسات التاريخية[1] فقد عالجت فيه ثلاث قضايا :

الأولى : — شخصية السلطان الأشرف طومان باى وكفاءته كسلطان تولى الحكم فى مصر فى لحظة من أحلك لحظات التاريخ المصرى ، ومدة حكمه لا تتجاوز الثلاثة أشهر ونصف (١٤ من رمضان - ٢٩ من ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ) ، مما جعل التاريخ والمؤرخين يغمطونه حقه حتى لا تكاد تجد فى كتب التراجم أى ذكر لطومان باى إلا عرضاً أثناء الحديث عن سلفه السلطان قانصوه الغورى ، ثم يعقبون بأنه تولى بعده السلطنة فى مصر وهزم فى الريدانية ثم شنق على باب زويلة .

الثانية : — المقاومة المصرية للغزو العثمانى - وفى هذا المجال لم أجد - أثناء كتابتى لهذا البحث - أحداً من الباحثين قد أبرز هذا الدور الرائع للمقاومة المصرية على المستويين الرسمى والشعبى فكل الباحثين قد تجاهلوا هذا الدور الرائع الذى قام به الشعب المصرى دفاعاً عن وطنه وإذا ذكروا شيئاً ضئيلا عن المقاومة فإنهم يعتبرونها مقاومة مملوكية بحته ، على اعتبار أن الشعب المصرى كان منفصلا تماماً عن العنصر المملوكى الذى يمثل السلطة الحاكمة والقوة الحربية .

الثالثة : — عوامل إخفاق المقاومة المصرية الغزو العثمانى التى لم يحاول أحد من الباحثين أن يفتش عنها بين انقاض هذه الأحداث .

---

(١) فى أثناء طبع الجزء الأخير من هذا البحث ظهر كتاب للدكتور عبد المنعم ماجد يحمل عنوان : « طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر » دراسة للأسباب التى أنهت حكم دولة سلاطين المماليك فى مصر » .

فى مجال معالجة القضية الأولى — استطعت - بحمد الله وعونه - بعد البحث والتنقيب فى المخطوطات وفى المصادر الأصلية المعاصرة لتلك الأحداث أن أجمع ما كتب عرضاً - عن طومان باى - من نتف قليلة متفرقة ومبعثرة - بحكم طريقة التأريخ فى تلك الفترة - ثم وضعتها أمامى وربطت بينها فارتسمت أمامى الصورة الحقيقية لهذا السلطان ، حيث اتضح لى أن طومان باى لم يكن - قبل توليته السلطنة - مغموراً أو مملوكاً عادياً تدرج فى المناصب حتى وصل إلى منصب الدوادار الكبير ، بل رأيته وقد تولى المناصب الخطيرة فقام بأعبائها خير قيام ، وبحصر المناصب والأعباء التى قام بها طومان باى - إبان سلطنة الغورى - أستطيع أن أقرر أنه قام بأعباء ما يعرف اليوم بوزراء : الداخلية والخارجية والحربية والبحرية والمالية والعدل والزراعة والرى .

ولا أعتقد أن أية دولة فى تلك الفترة كانت تحتاج فى تنظيم أمورها لأكثر من هذه الوزارات ، وبذلك يكون طومان باى قد جمع فى يده - إبان سلطنة الغورى - كل مقاليد الأمور فى الدولة ، الأمر الذى يمكننى معه القول بأن طومان كان هو المرشح الأول لتولى سلطنة مصر بعد الغورى وما اختيار أمراء المماليك له بعد مقتل الغورى إلا إقرار بالأمر الواقع ، أو قل تحصيل حاصل لأنه لم يكن هناك من يستطيع الاضطلاع بأعباء السلطنة سواه .

وبعد توليته السلطنة فى هذه الظروف العسكرية الصعبة - كان طومان باى قائداً عسكرياً متمرساً قاد المقاومة الرسمية ضد الغزو العثمانى خير قيادة ، فكثف الجهود لتعبئة جميع إمكانات مصر المتاحة - فقد خسرت مصر فى مرج دابق كل ما فى الخزائن من مال وما فى الترسانة العسكرية من أسلحة كما سبق أن أشرنا - مالياً وعسكرياً ، فجمع الأموال من القادرين فقط وصنع الأسلحة بنفسه ، وأعلن التعبئة العامة حيث نفر إلى القتال أعداد

غفيرة من أبناء مصر للاشتراك مع المماليك فى الزود عن وطنهم ، ودفع طومان باى بهذه القوة للقاء العثمانيين قبل توغلهم فى الأراضى المصرية عند غزة ، وبعد هزيمة غزة لم يعرف اليأس سبيله إلى طومان باى فأخذ يستعد من جديد وكان من رأيه كقائد عسكرى محنك أن يخرج على رأس جيش لمباغتة العثمانيين عند الصالحية وهم فى شدة الارهاق من طول السفر وقلة المئونة ، وعند مارفض أمراء المماليك هذه الخطة واجه طومان باى الموقف بذكاء ، فشن حرب العصابات على العثمانيين بواسطة العربان الذين أنهكوا العثمانيين وكبدوهم خسائر فادحة فى الأرواح ، كما أمر بحرق شون المؤن ، ومن جهة أخرى أقام التحصينات العسكرية حول صحراء الريدانية فى مواجهة العثمانيين من الجبل الأحمر إلى المطرية لحفر الخنادق واشترك بنفسه فى حفرها رفعاً لمعنوية جنوده ، وحشد المدافع والأسلحة المختلفة وراء الخندق وجهز المؤن خلف الجيش استعداداً للقاء العثمانيين ، ونستطيع أن نقرر أن معركة الريدانية - وإن كانت قد خسرها المصريون بسبب الخيانة - كانت أروع مثال على براعة طـــومان باى فى حشد الجيوش وتجهيز الاستحكامات العسكرية . والتخطيط للمعركة ووضع الأمور فى نصابها ، وعلى فدائيته وبسالته ، حينما أحس بالخيانة فرى بنفسه فى كوكبة من أصحابه وخواصه واخترق صفوف العثمانيين قاصداً سلطانهم سليم ونجح فى قتل من كان فى خيمته ظناً منه أنه سليم فاتضح فيما بعد أنه وزيره ، وقد اعترف سليم بنفسه بضخامة الاستعدادات التى أعدها طومان باى فى غزة والريدانية .

وتتجلى صلابة هذا السلطان الشهيد حينما سقطت عاصمته فى أيدى الغزاة فلم يستسلم لهم ولم يهرب من مصر ، بل قاد المقاومة الشعبية التى انفجرت فى جميع أنحاء القاهرة فزلزلت الأرض من تحت أقدام العثمانيين وأجلتهم من معظم أحياء القاهرة ، ولم يتمكن العثمانيون من استعادة سيطرتهم على

العاصمة إلا بعد أن حشدوا كل قواتهم واستخدموا مدافعهم ، فلم يستسلم طومان باى بل انسحب إلى الصعيد لتنظيم المقاومة من جديد ، فشهدت معارك أطفيح والجيزة ووردان بسالة هذه المقاومة وفنونها ، الأمر الذى جعل سليما يفكر أكثر من مرة فى الإنسحاب من مصر ويصب جام غضبـــه على خاير بك الذى زين له الزحف على مصر ، مما يجعلنا نضع طومان باى فى عداد أبطال المقاومة ضد الاستعمار الأجنبى فى التاريخ .

وفى مجال معالجة القضية الثانية ـ فقد اتضح لى من خلال بحثى هذا أن الشعب المصرى لم يكن سلبياً أثناء الغزو العثمانى لمصر ، بل اشترك اشتراكاً فعلياً فى المقاومة ـ خلافاً لما يراه الباحثون ـ فقد لبى الشعب داعى الجهاد والتف حول سلطانه حينما أعلن طومان باى التعبئة العامة فتدفق العربان إلى العاصمة ، واشترك بعضهم فى موقعة غزة ، كما اشترك الشعب بجميع فئاته فى الريدانية ، بالجنود الرماة وبالفنيين من مختلف المهن فى الاعداد للمعركة ، وبعد سقوط العاصمة تفجرت المقاومة الشعبية فى جميع أنحاء القاهرة ، فكانت معركة الصليبة التى اشترك فيها الشعب بجميع طوائفه حتى النساء ، واستطاع الشعب المصرى أن يكبد العثمانيين الخسائر الفادحة فى هذه المعركة التى نشب فيها القتال فى الحارات والأزقة فى جميع أحياء القاهرة ، وبعد هزيمة الصليبة وانسحاب طومان باى إلى الصعيد تدفقت طوائف العربان على طومان باى واشتركوا معه فى معارك المقاومة التى خاضها ضد المستعمر الأجنبى ، وفى الوقت الذى استسلم فيه طومان باى بعد هزيمته فى واقعة وردان نتيجة الخيانة والعوامل الأخرى التى ذكرتها كان هناك فى الطريق إليه ألفان من عرب قطارة الذين جاءوا لنصرته ، وعند ما شنق على باب زويلة بكاه الشعب المصرى كما لم يبك سلطاناً من قبل لشجاعته وجرأته وتدينه وخلقه وحسن سياسته وعدله الذى عم البلاد على عهده القصير .

وفي مجال معالجة القضية الثالثة فقد استقصيت عوامل إخفاق المقاومة المصرية للغزو العثماني، فوجدتها تنقسم إلى قسمين: قسم يتصل بالجانب العثماني، وآخر يتصل بالجانب المصري المملوكي. ففي الجانب العثماني أبرزت كيف أن عناصر النصر قد توفرت للعثمانيين، لكون الدولة العثمانية دولة إسلامية فتية ناهضة ضربت سمعتها الآفاق، وجيشها جيش منظم يأتمر بأمر سلطانه ويطيعه طاعة عمياء على عكس الجيش المملوكي، بالإضافة إلى الأسلحة الحديثة التي زود بها الجيش العثماني، ما لم يعرفه المماليك من قبل، هذا فضلا عن الروح المعنوية العالية التي اكتسبها هذا الجيش نتيجة انتصاراته المتلاحقة والأسلوب العسكري الذي طبقه سليم خير تطبيق في مجال التجسس والحرب النفسية.

وفي الجانب المصري المملوكي أبرزت كيف أن عوامل الهزيمة كانت قابعة في جانبه، مثل: حالة التدهور الإقتصادي التي أصابت الدولة المملوكية والتي انعكست على الجانب العسكري بصفة ملحوظة، وطبيعة الجيش المملوكي المنقسم إلى شيع وأحزاب متعددة الولاء والأهواء، والخيانة التي صاحبت جميع العمليات العسكرية ضد العثمانيين منذ معركة مرج دابق في الشام حتى واقعة وردان، هذا فضلا عن تجمد الفكر العسكري لدى المماليك فلم يطوروا أسلوبهم الحربي وأسلحتهم بما يتوائم والتطور العالمي في الأسلحة الحديثة والفكر العسكري، بل ظلوا يعتزون بأسلوب العصور الوسطى في المعارك، وهو الفروسية والكر والفر، معتقدين أن الشجاعة والبطولة الفردية في النزال والطعن كفيلة بتحقيق النصر في المعارك، وعند ما أدركوا خطأهم كان الوقت قد فات، وكان الثمن فادحاً وهو زوال دولتهم من خريطة العالم.

وبالله التوفيق ومنه العون

# مصادر البحث ومراجعه

## أولا — المخطوطات :

١ — ابن الحمصى (أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصارى الشافعى ، الشهير بابن الحمصى ) .

حوادث الزمان وأبناؤه ووفيات الأعيان وأبناؤه ، مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٢٩ تاريخ ، وهى تمثل الجزء الثالث من تاريخ ابن الحمصى الذى يقع فى ثلاثة أجزاء مخطوطة متفرقة فى مكتبات العالم :

الجزء الأول : — بمكتبة فيض الله تحت رقم ١٤٣٨ ؛ ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم ٦٨٧ .

الجزء الثانى : — بمكتبة كامبردج تحت رقم ١١٢ ، ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم ١ .

الجزء الثالث : — بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٢٩ تاريخ ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم ٤٨٠ وهذا الجزء الثالث هو الذى استقيت منه مادتى العلمية ، وهو ناقص من أوله فيبدأ من حوادث شوال سنة ٩١٥ هـ مع أن المفروض أن يبتدىء من أول سنة ٩٠٩ هـ حيث ينتهى الجزء الثانى بحوادث ذى الحجة سنة ٩٠٨ هـ .

وابن الحمصى مؤرخ شامى كان يشغل وظيفة إمام المسجد الأموى وقت الغزو العثمانى ، وقد اهتم بتاريخ مصر والشام والحجاز ، أى الرقعة التى كانت تسيطر عليها دولة المماليك ، وقد سار فى

مخطوطته على الطريقة التقليدية لذلك العصر، وهى التأريخ السنوى فيذكر الأحداث التى وقعت فى العام .

٢ — ابن الوكيل ( يوسف أفندى بن محمد الملوى ، الشهير بابن الوكيل ) ، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، مخطوطة بمكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج تحت رقم ٢٨ تاريخ وهناك نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدول العربية رقم الفيلم ٤٧٧ ، وهو مخطوط هام يتناول تاريخ مصر وولاتها بالتفصيل منذ الغزو العثمانى ٩٢٣ هـ إلى سنة ١١٢١هـ بعد مقدمة سريعة موجزة عن فضائل مصر وتاريخها منذ الفتح العربى إلى الغزو العثمانى ،

٣ — زين الدين النحريرى الحنفى — الدر المنضد فى مدح الوزير محمد ، مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٧٩٨ تاريخ تيمور ، فرغ منها مؤلفها فى سنة ١٠٥٢ هـ .

٤ — المقدسى ( مرعى بن يوسف الحنبلى ) المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ - نزهة الناظرين فى تاريخ من ولى مصر من الملوك والسلاطين مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢٢٦ تاريخ . وتوجد نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم الفيلم ٤٣١ .

ثانيا : — المصادر والمراجع المطبوعة :

١ — إبراهيم بك حليم — التحفة الحليمية فى تاريخ الدولة العلية ، ط ١ مطبعة ديوان عموم الأوقاف ، القاهرة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٥ م :

٢ — ابن إياس ( محمد بن أحمد بن إياس الحنفى المصرى ) المتوفى سنة ٩٣٠ هـ ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ( ثلاثة أجزاء ) ط ١ ،

بولاق ١٣١٢ هـ ، وهذه الطبعة ناقصة معظم فترة حكم الغورى من سنة ٩٠٦ — ٩٢٢ هـ ، وقد استعنت مع النسخة السابقة بنسخة أخرى ( مجلد واحد ) طبع القاهرة ١٩٦٠ م ( طبعة الشعب ) .

٣ — ابن تغرى بردى ( جمال الدين أبو المحاسن ) ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ( ١٦ جزء ) حـ ١٦ ، تحقيق د . جمال الدين الشيال ، فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٢ .

٤ — ابن زنبل ( الشيخ أحمد الرمال الشهير بابن زنبل المتوفى سنة ٩٦٠ هـ ) ، آخرة المماليك واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ( سلسلة كتب ثقافية ) القاهرة ١٩٦٢ م .

٥ — ابن العماد الحنبلى ( عبد الحى بن العماد - المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ( ٨ أجزاء ) نشر مكتبة القدسى بجوار الأزهر الشريف سنة ١٠٥١ هـ / ١٩٢٢ م

٦ — الاسحاقى ( محمد بن عبد المعطى بن أبى الفتح بن أحمد بن عبد الغنى بن على ) ، لطائف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول ، المطبعة العثمانية ، القاهرة ، ١٢١٥ هـ

٧ — ساطع الحصرى - البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٠ م .

٨ — سيديو - تاريخ العرب العام - ترجمة عادل زعيتر ، عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .

٩ — عبد العزيز الشناوى ( دكتور ) - أوربا فى مطلع العصور الحديثة ، حـ ١ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٩ م

١٠ — عبد الله الشرقاوى ( الشيخ ) - تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين ، وهو كتاب مطبوع على هامش كتاب الاسحاقى السالف الذكر .

١١ — على مبارك ( باشا ) - الخطط التوفيقية ( ٢٠ جزء ) بولاق ، القاهرة ١٣٠٦ هـ / ١٨٨٨ م

١٢ — عمر الاسكندرى وسليم حسن - تاريخ مصر من الفتح العثمانى إلى قبيل الوقت الحاضر ، ط ٦ ، مطبعة المعارف بالفجالة بالقاهرة ١٤٣ هـ / ١٩٢٤ م .

١٣ - الغزى (الشيخ نجم الدين بن بدر الدين بن أحمد) ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (ثلاثة أجزاء) تحقيق جبرائيل سليمان جبور - المطبعة الأمريكية ، بيروت ، ١٩٤٥ م .

١٤ — القرمانى ( أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى - الشهير بالقرمانى ) ، أخبار الدول وآثار الأول ، طبع بمطبعة الميرزا عباس التبريزى ببغداد سنة ١٢٨٢ هـ

١٥ - محمد فريد ( بك ) - تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٢٩٧ هـ / ١٩٧٧ م

١٦ — محمود رزق سليم ( دكتور ) - عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى ( ٨ مجلدات ) المجلد الأول ، ط ٢ ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ، القاهرة ١٢٨١ هـ / ١٩٦٢ م .

١٧ - وليم موير ( السير ) - تاريخ دولة المماليك فى مصر ( ١٢٦٠ - ١٥١٧ م ) ، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن ، ط ١ ، مطبعة المعارف بالفجالة بمصر ١٤٢ هـ / ١٩٢٤ م .

ثالثا - دوائر معارف

١٨ — دائرة المعارف الاسلامية حـ ١٠ طبعة الشعب .

# محتوى البحث

---

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية ١٩٧٩/٤٢٢٤